آيات الاعتبار
في القرآن الكريم

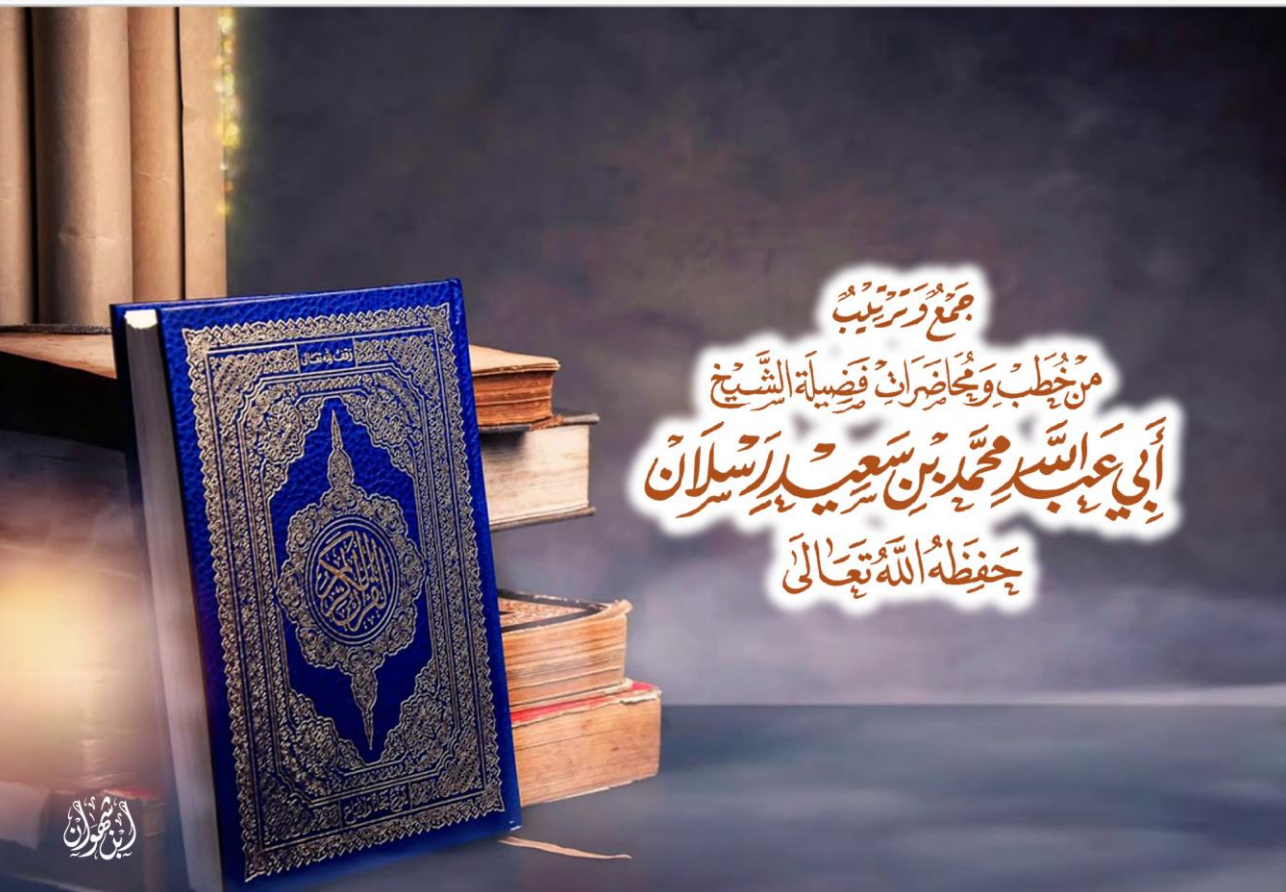

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

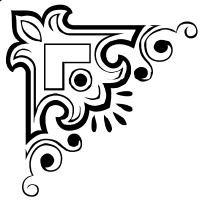

دَعْوَةُ الْقُرْآنِ إِلَى التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ

فَقَدْ حَرَّكَ القُرْآنُ القُلُوبَ وَالعُقُولَ إِلَىٰ تَأَمُّلِ المَعَانِي، وَالِاتِّعَاظِ وَالِاسْتِبْصَارِ لِمَا جَاءَ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- مِنَ التَّخْوِيفِ وَالتَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ، وَمَا ذَكَرَ مِنْ مَصِيرِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ حِينَ اسْتَجَابُوا أَوْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ المَوَاضِعَ التِي يَذْكُرُ فِيهَا القُرْآنُ القَصَصَ وَالأَمْثَالَ، وَالتِي يَذْكُرُ فِيهَا الحَثَّ عَلَىٰ التَّعَقُّلِ، وَالتَّذَكُّرِ، وَالتَّفَكُّرِ، وَالتَّقْوَىٰ وَالإِيمَانِ، وَالرُّؤْيَةِ وَالإِبْصَارِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

فَمِنَ المَوَاضِعِ التِي حَثَّ فِيهَا عَلَىٰ التَّعَقُّلِ: وَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَوْضِعًا مِنَ القُرْآنِ العَظِيمِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ.

كَمَا وَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فِي ثَمَانِيَةِ مَوَاضِعَ.

وَقَدْ وَرَدَ غَيْرُهَا مِنَ الآيَاتِ فِي المَوْضُوعِ نَفْسِهِ بِصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ المَجِيدِ.

كَمَا وَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فِي مَوْضِعَينِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ.

قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ المَجِيدِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ -أَيْضًا-.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ.

كَمَا قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وَكَذَلِكَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩].

وَقَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧].

وَفِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَٱنظُرُوا۟ ٱلَّذِينَ..﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ.

وَكَذَلِكَ المَوَاضِعُ التِي ذُكِرَ فِيهَا السَّمَاعُ؛ كَقَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص: ٧١].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ.

فَهَذِهِ المَوَاضِعُ وَغَيْرُهَا إِنَّمَا يَدْعُو ﷻ فِيهَا إِلَىٰ التَّأَمُّلِ فِيمَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ المَوَاعِظِ وَالآيَاتِ، القَائِدِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ وَالإِيمَانِ، وَاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ.

دَعَا القُرْآنُ إِلَى التَّأَمُّلِ، وَالتَّذَكُّرِ، وَالِاعْتِبَارِ؛ فَوَجَّهَ الْخِطَابَ لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ وَالنُّهَى؛ فَقَدْ وَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ المَجِيدِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ -أَيْضًا-.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر: ٥].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَسِرُّ ذَلِكَ: هُوَ حَثُّ أَصْحَابِ تِلْكَ العُقُولِ وَالأَلْبَابِ عَلَىٰ اسْتِعْمَالِهَا فِي تَدَبُّرِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ، وَالِاهْتِدَاءِ بِمَا فِيهِ.

قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «وَخَصَّ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- بِأَنَّ ذَلِكَ آيَاتٌ لِأُولِي النُّهَىٰ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ، وَأَهْلُ التَّدَبُّرِ وَالِاتِّعَاظِ».

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٤]: «إِنَّ فِيمَا وَصِفَ فِي هَذِهِ الآيَةِ مِنْ قُدْرَةِ رَبِّكُمْ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ لَآيَاتٍ -يَعْنِي: لَدَلَالَاتٍ وَعَلَامَاتٍ- تَدُلُّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ رَبِّكُمْ، وَأَنْ لَا إِلَهَ لَكُمْ سِوَاهُ»(٢).

وَضَرَبَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الأَمْثَالَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَحَثَّ عَلَىٰ تَأَمُّلِهَا وَتَذَكُّرِهَا فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَفِي مَجَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ فَضَرَبَ اللهُ الأَمْثَالَ لِلْإِيمَانِ وَالكُفْرِ، وَالعِلْمِ النَّافِعِ، وَفَضْحِ النِّفَاقِ، وَالحَثِّ عَلَىٰ الإِنْفَاقِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الخَيْرِ، وَالتَّنْدِيدِ بِالشَّرِّ، وَتَصْوِيرِ الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ، وَالصَّالِحِ وَالطَّالِحِ، وَلِإِقَامَةِ الأَدِلَّةِ وَالبَرَاهِينِ، وَبَيَانِ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

قَالَ -تَعَالَىٰ- فِي بَيَانِ الهَدَفِ مِنْ تِلْكَ الأَمْثَالِ: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٥].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ٣٢١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/ ٣٢١).

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

وَأَظْهَرَ القُرْآنُ مَصِيرَ مَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِتِلْكَ الأَمْثَالِ، فَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٩].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «يَقُولُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ-: وَكُلُّ هَذِهِ الأُمَمِ التِي أَهْلَكْنَاهَا -التِي سَمَّيْنَاهَا، أَوْ لَمْ نُسَمِّهَا- ضَرَبْنَا لَهَا الأَمْثَالَ، يَقُولُ: مَثَّلْنَا لَهَا الأَمْثَالَ، وَنَبَّهْنَاهَا عَلَىٰ حُجَجِنَا عَلَيْهَا، وَأَعْذَرْنَا إِلَيْهَا بِالعِبَرِ وَالمَوَاعِظِ، فَلَمْ نُهْلِكْ مِنْهُمْ أُمَّةً إِلَّا بَعْدَ الإِبْلَاغِ إِلَيْهِمْ فِي المَعْذِرَةِ».

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الآيَاتِ قَدْ خُتِمَتْ بِعِلَلٍ تَدْعُو إِلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩].

وَقَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٧٢).

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩].

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥].

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣].

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة: ٣].

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨].

وَقَولِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]، وَغَيْرِهَا مِنَ الآيَاتِ الكَثِيرَةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ المُؤْمِنَ يَسْعَىٰ لِتَحْقِيقِ تِلْكَ الغَايَاتِ التِي أُنْزِلَتْ مِنْ أَجْلِهَا الآيَاتُ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ، وَالتَّأَمُّلِ فِيهِ، وَالعَمَلِ بِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَوَامِرَ وَتَوْجِيهَاتٍ.

وَقَدْ أَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّ الغَافِلِينَ وَالكَافِرِينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُكَذِّبِينَ مَصْرُوفُونَ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِهِ وَفَهْمِهَا، وَالِانْتِفَاعِ بِهَا، وَمِنْهَا: القُرْآنُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ القُرْآنِ، وَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ».

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: «وَأَوْلَىٰ الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ -وَهِيَ: أَدِلَّتُهُ وَأَعْلَامُهُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَا أَمَرَ بِهِ عِبَادَهُ وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَتِهِ فِي تَوْحِيدِهِ وَعَدْلِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِهِ؛ وَالسَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ مَوْجُودٍ مِنْ خَلْقِهِ فَمِنْ آيَاتِهِ، وَالقُرْآنُ أَيْضًا مِنْ آيَاتِهِ-، وَقَدْ عَمَّ بِالخَبَرِ أَنَّهُ سَيَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ المُتَكَبِّرِينَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ، وَهُمُ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَهُمْ عَنْ فَهْمِ جَمِيعِ آيَاتِهِ وَالِاعْتِبَارِ وَالادِّكَارِ بِهَا مَصْرُوفُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ وُفِّقُوا لِفَهْمِ بَعْضِ ذَلِكَ فَهُدُوا لِلِاعْتِبَارِ بِهِ لَاتَّعَظُوا وَأَنَابُوا إِلَىٰ الحَقِّ، وَذَلِكَ غَيْرُ كَائِنٍ مِنْهُمْ»(١).(*).

❊❊❊

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ١١٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَةِ: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَرْبِعَاءُ ١٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ| ٧-٦-٢٠١٧م.

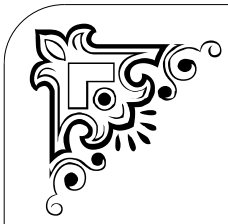

الِاعْتِبَارُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا

الِاعْتِبَارُ لُغَةً: مَصْدَرُ «اعْتَبَرَ»: وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّةِ (ع ب ر) الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ النُّفُوذِ وَالْمُضِيِّ فِي الشَّيْءِ، يُقَالُ: عَبَرْتُ النَّهْرَ عُبُورًا، وَعَبْرُ النَّهْرِ -بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ-: شَطُّهُ.

قَالَ الْخَلِيلُ(١): «عَبْرَةُ الدَّمْعِ: جَرْيُهُ، قَالَ: وَالدَّمْعُ -أَيْضًا- عَبْرَةٌ؛ لِأَنَّ الدَّمْعَ يَعْبُرُ؛ أَيْ: يَنْفُذُ ويَجْرِي.

فَأَمَّا الِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ؛ فَهُمَا عِنْدَ ابْنِ فَارِسٍ مَقِيسَانِ مِنْ عَبْرَيِ النَّهْرِ -أَيْ: شَاطِئَيْهِ-؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُسَاوٍ لِصَاحِبِهِ، فَذَاكَ عَبَرَ لِهَذَا، وَهَذَا عَبَرَ لِذَاكَ، فَإِذَا قُلْتَ: اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ؛ فَكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَىٰ الشَّيْءِ فَجَعَلْتَ مَا يَعْنِيكَ عَبْرًا لِذَاكَ، فَتَسَاوَيَا عِنْدَكَ.

هَذَا اشْتِقَاقُ الِاعْتِبَارِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢]؛ كَأَنَّهُ قَالَ: انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ فَعَلَ مَا فَعَلَ فَعُوقِبَ بِمَا عُوقِبَ بِهِ، فَتَجَنَّبُوا مِثْلَ صَنِيعِهِمْ؛ لِئَلَّا يَنْزِلَ بِكُمْ

(١) بتصرف يسير من: «مقاييس اللغة» (٤/ ٢٠٩-٢١٠).

مِثْلُ مَا نَزَلَ بِأُولَئِكَ، وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا الْقِيَاسِ: قَوْلُ الْخَلِيلِ: عَبَّرْتُ الدَّنَانِيرَ تَعْبِيرًا إِذَا وَزَنْتُهَا دِينَارًا دِينَارًا، وَالْعِبْرَةُ: الِاعْتِبَارُ بِمَا مَضَىٰ».

وَقَالَ الرَّاغِبُ(١): «أَصْلُ (الْعَبْرِ): تَجَاوُزٌ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، فَأَمَّا الْعُبُورُ فَيَخْتَصُّ بِتَجَاوُزِ الْمَاءِ، وَمِنْهُ: عَبَرَ النَّهْرَ لِجَانِبِهِ؛ حَيْثُ يَعْبُرُ إِلَيْهِ الْمَرْءُ أَوْ مِنْهُ، وَاشْتُقَّ مِنْهُ عَبْرُ الْعَيْنِ لِلدَّمْعِ، وَالْعَبْرَةُ كَالدَّمْعَةِ، وَقِيلَ: عَابِرُ سَبِيلٍ؛ أَيِ: الْمَارُّ، وَعَبَرَ الْقَوْمُ إِذَا مَاتُوا، كَأَنَّهُمْ عَبَرُوا قَنْطَرَةَ الدُّنْيَا.

وَالِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ يَكُونُ بِالْحَالَةِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ الْمُشَاهَدِ إِلَىٰ مَا لَيْسَ بِمُشَاهَدٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران: ١٣]، وَقَالَ: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢]».

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: «فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَىٰ؟».

قَالَ: «**كَانَتْ عِبَرًا كُلُّهَا**».

وَ«الْعِبَرُ: جَمْعُ عِبْرَةٍ، وَهِيَ كَالْمَوْعِظَةِ مِمَّا يَتَّعِظُ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَيَعْمَلُ بِهِ وَيَعْتَبِرُ؛ لِيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ»(٢).

«**وَالْعِبْرَةُ** -**أَيْضًا**-: الِاعْتِبَارُ بِمَا مَضَىٰ، وَقِيلَ: الْعِبْرَةُ: الِاسْمُ مِنَ الِاعْتِبَارِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْبُرُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْبُرُهَا؛ أَيْ: مِمَّنْ يَعْتَبِرُ بِهَا، وَلَا يَمُوتُ سَرِيعًا حَتَّىٰ يُرْضِيَكَ بِالطَّاعَةِ.

---

(١) «مفردات الراغب» (٣٢٠).

(٢) «النهاية» (٣/ ١٧١).

وَيُقَالُ: عَبِرَتْ عَيْنُهُ وَاسْتَعْبَرَتْ: دَمَعَتْ، وَعَبِرَ عَبْرًا وَاسْتَعْبَرَ: بَدَتْ عَبْرَتُهُ وَحَزِنَ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ اسْتَعْبَرَ فَبَكَىٰ»، هُوَ اسْتَفْعَلَ، مِنَ الْعِبْرَةِ، وَهِيَ تَحَلُّبُ الدَّمْعِ»(١).

وَالِاعْتِبَارُ اصْطِلَاحًا:

قَالَ الْكَفَوِيُّ(٢): «الِاعْتِبَارُ: هُوَ النَّظَرُ فِي حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَجِهَاتِ دَلَالَتِهَا؛ لِيُعْرَفَ بِالنَّظَرِ فِيهَا شَيْءٌ آخَرُ مِنْ جِنْسِهَا، وَقِيلَ: الِاعْتِبَارُ: هُوَ التَّدَبُّرُ وَقِيَاسُ مَا غَابَ عَلَىٰ مَا ظَهَرَ».

وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ(٣): «الْعِبْرَةُ وَالِاعْتِبَارُ: الِاتِّعَاظُ، وَيَكُونُ بِمَعْنَىٰ الِاعْتِدَادِ بِالشَّيْءِ فِي تَرْتِيبِ الْحُكْمِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الِاعْتِبَارُ: الْمُجَاوَزَةُ مِنْ عُدْوَةٍ دُنْيَا إِلَىٰ عُدْوَةٍ قُصْوَىٰ، وَمِنْ عِلْمٍ أَدْنَىٰ إِلَىٰ عِلْمٍ أَعْلَىٰ».

وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ(٤): «الِاعْتِبَارُ: أَنْ يَرَىٰ الدُّنْيَا لِلْفَنَاءِ، وَالْعَامِلِينَ فِيهَا لِلْمَوْتِ، وَعُمْرَانَهَا لِلْخَرَابِ.

وَقِيلَ: الِاعْتِبَارُ: اسْمٌ مِنَ الْمُعْتَبَرَةِ، وَهِيَ رُؤْيَةُ فَنَاءِ الدُّنْيَا كُلِّهَا بِاسْتِعْمَالِ النَّظَرِ فِي فَنَاءِ جُزْئِهَا»»(٥).

---

(١) «لسان العرب» (ص: ٢٧٨٢).

(٢) «الكليات» للكفوي (١٤٧).

(٣) «التوقيف علىٰ مهمات التعاريف» للمناوي (٢٣٥).

(٤) «التعريفات» للجُرجاني (٣٠).

(٥) باختصار من: «نضرة النعيم» (٢/ ٣٧٩-٣٨٠).

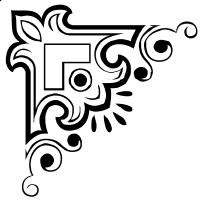

جُمْلَةٌ مِنْ آيَاتِ الِاعْتِبَارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عِبَادَ اللهِ، كَمْ فِي التَّنْزِيلِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْمُحْكَمَاتِ الْهَادِيَةِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ إِلَى الِاعْتِبَارِ وَالْعِبْرَةِ فِيمَا حَوْلَهُمْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتَدْبِيرِ اللهِ -تَعَالَى- فِي مُلْكِهِ فِي مُخْتَلَفِ الْأَوْقَاتِ؛ لِيَهْتَدُوا إِلَى تَقْوَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَطَاعَتِهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَأَلَّا يَغْتَرُّوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ وَالْأَمْوَالِ؛ فَتُلْهِيَهُمُ الْآمَالُ عَنِ الْآجَالِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٥-٦].

«يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ ﴿حَقّٞ﴾ أَيْ: لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ وَلَا تَرَدُّدَ، قَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ وَالْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةُ، فَإِذَا كَانَ وَعْدُهُ حَقًّا فَتَهَيَّئُوا لَهُ، وَبَادِرُوا أَوْقَاتَكُمُ الشَّرِيفَةَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلَا يَقْطَعْكُمْ عَنْ ذَلِكَ قَاطِعٌ؛ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بِلَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَمَطَالِبِهَا النَّفْسِيَّةِ فَتُلْهِيَكُمْ عَمَّا خُلِقْتُمْ لَهُ، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾ الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ، الَّذِي هُوَ عَدُوُّكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ؛ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أَيْ: لِتَكُنْ مِنْكُمْ عَدَاوَتُهُ عَلَىٰ بَالٍ، وَلَا تُهْمِلُوا مُحَارَبَتَهُ كُلَّ وَقْتٍ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَرَوْنَهُ، وَهُوَ دَائِمًا لَكُمْ بِالْمِرْصَادِ.

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ هَذَا غَايَتُهُ وَمَقْصُودُهُ مِمَّنْ تَبِعَهُ؛ أَنْ يُهَانَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ»(١).

إِنَّ الِاعْتِبَارَ مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخَصِّ مَزَايَا الْمُتَّقِينَ، وَأَهْلُ الِاعْتِبَارِ هُمْ أَصْحَابُ النَّظَرِ الثَّاقِبِ وَالْقَلْبِ الْخَاشِعِ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات: ٢٦].

«﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾: فَإِنَّ مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَإِذَا رَأَىٰ عُقُوبَةَ فِرْعَوْنَ عَرَفَ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَكَبَّرَ وَعَصَىٰ وَبَارَزَ الْمَلِكَ الْأَعْلَىٰ؛ عَاقَبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا مَنْ تَرَحَّلَتْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ قَلْبِهِ؛ فَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا»(٢).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

«﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أَيْ: قَلْبٌ عَظِيمٌ حَيٌّ ذَكِيٌّ زَكِيٌّ، فَهَذَا إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَذَكَّرَ بِهَا وَانْتَفَعَ فَارْتَفَعَ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَلْقَىٰ سَمْعَهُ إِلَىٰ آيَاتِ اللهِ، وَاسْتَمَعَهَا اسْتِمَاعًا يَسْتَرْشِدُ بِهِ، وَقَلْبُهُ شَهِيدٌ -أَيْ: حَاضِرٌ-؛ فَهَذَا لَهُ -أَيْضًا- ذِكْرَىٰ وَمَوْعِظَةٌ، وَشِفَاءٌ وَهُدًىٰ، وَأَمَّا الْمُعْرِضُ الَّذِي لَمْ يُصْغِ سَمْعَهُ إِلَىٰ الْآيَاتِ فَهَذَا لَا تُفِيدُهُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ لَا قَبُولَ عِنْدَهُ، وَلَا تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٠٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٧٣).

هِدَايَةَ مَنْ هَذَا نَعْتُهُ»(١).

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُ أَنَّ الْحَقَّ -سُبْحَانَهُ- قَدْ حَثَّ عَلَى إِعْمَالِ الْعُقُولِ بِالِاعْتِبَارِ، وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَأَوْلَى ذَلِكَ عِنَايَةً خَاصَّةً؛ بَلْ جَعَلَهُ مِنْ أَجَلِّ الْعِبَادَاتِ وَأَفْضَلِ الطَّاعَاتِ؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحانَهُ- آمِرًا بِالنَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

«﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ أَيِ: الْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ، وَالْعُقُولِ الْكَامِلَةِ؛ فَإِنَّ فِي هَذَا مُعْتَبَرًا يُعْرَفُ بِهِ صُنْعُ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي الْمُعَانِدِينَ لِلْحَقِّ، الْمُتَّبِعِينَ لِأَهْوَائِهِمْ، الَّذِينَ لَمْ تَنْفَعْهُمْ عِزَّتُهُمْ، وَلَا مَنَعَتْهُمْ قُوَّتُهُمْ، وَلَا حَصَّنَتْهُمْ حُصُونُهُمْ حِينَ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللهِ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ النَّكَالُ بِذُنُوبِهِمْ، وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ الْمَعْنَىٰ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ الْأَمْرِ بِالِاعْتِبَارِ، وَهُوَ اعْتِبَارُ النَّظِيرِ بِنَظِيرِهِ، وَقِيَاسُ الشَّيْءِ عَلَىٰ مَا يُشَابِهُهُ، وَالتَّفَكُّرُ فِيمَا تَضَمَّنَتْهُ الْأَحْكَامُ مِنَ الْمَعَانِي وَالْحِكَمِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ الْعَقْلِ وَالْفِكْرَةِ، وَبِذَلِكَ يَكْمُلُ الْعَقْلُ، وَتَتَنَوَّرُ الْبَصِيرَةُ، وَيَزْدَادُ الْإِيمَانُ، وَيَحْصُلُ الْفَهْمُ الْحَقِيقِيُّ، ثُمَّ أَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ لَمْ يُصِبْهُمْ جَمِيعُ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَأَنَّ اللهَ خَفَّفَ عَنْهُمْ»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٥٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٠٢).

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

«دَعَا اللهُ عِبَادَهُ إِلَىٰ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِيَنْظُرُوا وَيَعْتَبِرُوا، فَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِأَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ آيَاتِ اللهِ، وَيَتَأَمَّلُونَ بِهَا مَوَاقِعَ عِبَرِهِ، ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أَخْبَارَ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ، وَأَنْبَاءَ الْقُرُونِ الْمُعَذَّبِينَ؟!! وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ نَظَرِ الْعَيْنِ وَسَمَاعِ الْأُذُنِ وَسَيْرِ الْبَدَنِ الْخَالِي مِنَ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ غَيْرُ مُفِيدٍ، وَلَا مُوصِلٍ إِلَىٰ الْمَطْلُوبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ أَيْ: هَذَا الْعَمَىٰ الضَّارُّ فِي الدِّينِ عَمَىٰ الْقَلْبِ عَنِ الْحَقِّ، حَتَّىٰ لَا يُشَاهِدَهُ كَمَا لَا يُشَاهِدُ الْأَعْمَىٰ الْمَرْئِيَّاتِ، وَأَمَّا عَمَىٰ الْبَصَرِ فَغَايَتُهُ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ»(١).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٣٢).

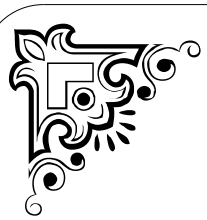

الِاعْتِبَارُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

وَكَمَا أَوْلَى الْقُرْآنُ الِاهْتِمَامَ بِالِاتِّعَاظِ وَالتَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ؛ كَذَلِكَ أَوْلَتِ السُّنَّةُ الِاهْتِمَامَ بِذَلِكَ، فَشَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ زِيَارَةَ الْقُبُورِ؛ لِلِاتِّعَاظِ بِهَا، وَتَذَكُّرِ الْآخِرَةِ؛ شَرِيطَةَ أَلَّا يَقُولَ عِنْدَهَا مَا يُغْضِبُ الرَّبَّ ﷻ؛ كَدُعَاءِ الْمَقْبُورِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِ مِنْ دُونِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، أَوْ تَزْكِيَتِهِ وَالْقَطْعِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَعَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ، وَلْتَزِدْكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ فَلْيَزُرْ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**»[(١)]. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله **فِي «الْمَجْمُوعِ»**[(٢)]: «وَالْهُجْرُ: الْكَلَامُ الْبَاطِلُ، وَكَانَ النَّهْيُ أَوَّلًا لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَرُبَّمَا كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ الْبَاطِلِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ قَوَاعِدُ الْإِسْلَامِ، وَتَمَهَّدَتْ أَحْكَامُهُ، وَاشْتَهَرَتْ مَعَالِمُهُ؛ أُبِيحَتْ لَهُمُ الزِّيَارَةُ، وَاحْتَاطَ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**»».

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ٦٥، ٦/ ٨٢) وأبو داود (٢/ ٧٢، ١٣١) ومن طريقه البيهقي (٤/ ٧٧) والنسائي (١/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢/ ٣٢٩، ٣٣٠) وأحمد (٥/ ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦١).

(٢) «المجموع» للنووي رحمه الله (٥/ ٣١٠).

وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ الْعَامَّةُ وَغَيْرُهُمْ عِنْدَ الزِّيَارَةِ مِنْ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِ وَسُؤَالِ اللهِ بِحَقِّهِ لَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْهُجْرِ وَالْقَوْلِ الْبَاطِلِ؛ فَعَلَىٰ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُبَيِّنُوا لَهُمْ حُكْمَ اللهِ فِي ذَلِكَ، وَيُفَهِّمُوهُمُ الزِّيَارَةَ الْمَشْرُوعَةَ، وَالْغَايَةَ مِنْهَا.

وَقَدْ قَالَ الصَّنْعَانِيُّ فِي «سُبُلِ السَّلَامِ» عَقِبَ أَحَادِيثَ فِي الزِّيَارَةِ وَالْحِكْمَةِ مِنْهَا(١): «الْكُلُّ دَالٌّ عَلَىٰ مَشْرُوعِيَّةِ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، وَبَيَانِ الْحِكْمَةِ فِيهَا، وَأَنَّهَا لِلِاعْتِبَارِ، فَإِذَا خَلَتْ مِنْ هَذِهِ لَمْ تَكُنْ مُرَادَةً شَرْعًا».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً، وَلَا تَقُولُوا مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ**»(٢). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.(*).

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَكَذَلِكَ ابْنُ مَاجَه فِي «سُنَنِهِ»، وَالْبُخَارِيُّ فِي «تَارِيخِهِ» -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا- عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَرَأَىٰ جَمَاعَةً اجْتَمَعُوا نَاحِيَةً، فَقَالَ: «**عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟**».

---

(١) «سُبُلُ السَّلَامِ» (٢/ ١٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨، ٦٣، ٦٦) والحاكم (١/ ٣٧٤-٣٧٥) وعنه البيهقي (٤/ ٧٧) ثم قال: «صحيح علىٰ شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، قال الألباني رحمه الله في «أحكام الجنائز»: «وهو كما قالا»، ورواه البزار -أيضا- (٨٦١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٨): «وإسناد رجاله رجال الصحيح».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِن: «شَرْحُ أَحْكَامِ الْجَنَائِزِ لِلْعَلَّامَةِ الْأَلْبَانِيِّ رحمه الله» (الْمُحَاضَرَة ٢١)، الثُّلَاثَاءُ ٢ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي ١٤٢٩هـ| ٨-٤-٢٠٠٨م.

فَقِيلَ: «إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ قَبْرٍ يَحْفُرُونَهُ»، فَبَدَرَ مِنَّا نَبِيُّنَا ﷺ مُسْرِعًا حَتَّىٰ جَاءَ إِلَىٰ شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَجَثَا عِنْدَهُ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَىٰ الْقَبْرِ.

قَالَ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقُلْتُ أَسْتَقْبِلُهُ مِنْ جِهَةِ وَجْهِهِ؛ لَأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلْتُهُ، فَإِذَا هُوَ يَبْكِي، وَمَا زَالَ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الثَّرَىٰ -حَتَّىٰ بَلَّ التُّرَابَ النَّدِيَّ- بِدُمُوعِهِ ﷺ الْمُتَفَجِّرَاتِ مِنْ قَلْبِهِ وَفُؤَادِهِ.

قَالَ: ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا**».

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَلْمَحٍ عَمَلِيٍّ تَطْبِيقِيٍّ وَاقِعِيٍّ مُبْصَرٍ مُشَاهَدٍ مَلْمُوسٍ مَحْسُوسٍ؛ فَإِنَّ الْقَبْرَ كَانَ يُعَدُّ لِاسْتِقْبَالِ مَيِّتٍ، وَقَدْ فَتَحَ فَاهُ وَفَغَرَ فِيهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَلْتَقِمَهُ؛ لِيُغَيِّبَهُ فِي جَوْفِهِ يَتَرَمَّمُ.. يَتَجَيَّفُ، ثُمَّ يَصِيرُ بَعْدُ تُرَابًا، وَهُنَالِكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ، أَوْ نَعِيمٌ مَكِينٌ، لَا يَدْرِي ذَلِكَ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَيَجْثُو النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ عِنْدَ الْقَبْرِ يَبْكِي؛ عَلَامَ يَبْكِي ﷺ؟!!

أَلَمْ يَغْفِرْ لَهُ رَبُّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟!!

بَلَىٰ؛ قَدْ فَعَلَ؛ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَسِيرُ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَيْرَ الْعَارِفِ بِجَلَالِ قَدْرِهِ، الْمُقَدِّرِ لِعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَمَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّىٰ يَبُلَّ بِدُمُوعِهِ التُّرَابَ، ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ وَإِلَيْنا مَعًا: «**أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا فَاعْمَلُوا، أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا، أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا الْمَنْزِلِ فَاسْتَعِدُّوا**».

يَقُولُهَا نَبِيُّنَا ﷺ؛ لِأَنَّهُ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِاللهِ جَلَّوَعَلَا.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الْإِخْلَاصُ رُوحُ الْإِسْلَامِ» - الْجُمُعَة ٢٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٥هـ| ١٢-١١-٢٠٠٤م.

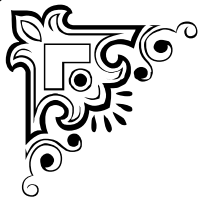

مَنْزِلَةُ التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ

يَنْزِلُ الْقَلْبُ -بَعْدَ مَنْزِلَةِ الْإِنَابَةِ- مَنْزِلَةَ التَّذَكُّرِ، وَهُوَ قَرِينُ الْإِنَابَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر:١٣]، وَقَالَ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق:٨].

وَهُوَ مِنْ خَوَاصِّ أُولِي الْأَلْبَابِ -يَعْنِي: التَّذَكُّرَ-، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

وَالتَّذَكُّرُ وَالتَّفَكُّرُ مَنْزِلَانِ يُثْمِرَانِ أَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ، وَحَقَائِقَ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، فَالْعَارِفُ لَا يَزَالُ يَعُودُ بِتَفَكُّرِهِ عَلَىٰ تَذَكُّرِهِ، وَبِتَذَكُّرِهِ عَلَىٰ تَفَكُّرِهِ حَتَّىٰ يُفْتَحَ قُفْلُ قَلْبِهِ بِإِذْنِ الْفَتَّاحِ الْعَلِيمِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّىٰ نَطَقَتْ».

وَالتَّذَكُّرُ تَفَعُّلٌ مِنَ الذِّكْرِ، وَهُوَ ضِدُّ النِّسْيَانِ، وَهُوَ حُضُورُ صُورَةِ الْمَذْكُورِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْقَلْبِ، وَاخْتِيرَ لَهُ بِنَاءُ التَّفَعُّلِ لِحُصُولِهِ بَعْدَ مُهْلَةٍ وَتَدْرِيجٍ؛ كَالتَّبَصُّرِ، وَالتَّفَهُّمِ، وَالتَّعَلُّمِ.

فَمَنْزِلَةُ التَّذَكُّرِ مِنَ التَّفَكُّرِ مَنْزِلَةُ حُصُولِ الشَّيْءِ الْمَطْلُوبِ بَعْدَ التَّفْتِيشِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ آيَاتُ اللهِ الْمَتْلُوَّةُ وَالْمَشْهُودَةُ ذِكْرَىٰ، كَمَا قَالَ -تَعَالَىٰ- فِي الْمَتْلُوَّةِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ [غافر:٥٣]، وَقَالَ عَنِ الْقُرْآنِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة:٤٨]، وَقَالَ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦].

فَالتَّبْصِرَةُ آلَةُ الْبَصَرِ، وَالتَّذْكِرَةُ آلَةُ الذِّكْرِ، وَقُرِنَ بَيْنَهُمَا، وَجُعِلَا لِأَهْلِ الْإِنَابَةِ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَنَابَ إِلَىٰ اللهِ أَبْصَرَ مَوَاقِعَ الْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَاسْتَدَلَّ بِهَا عَلَىٰ مَا هِيَ آيَاتٌ لَهُ؛ فَزَالَ عَنْهُ الْإِعْرَاضُ بِالْإِنَابَةِ، وَالْعَمَىٰ بِالْبَصِيرَةِ، وَالْغَفْلَةُ بِالتَّذْكِرَةِ؛ لِأَنَّ التَّبْصِرَةَ تُوجِبُ لَهُ حُصُولَ صُورَةِ الْمَدْلُولِ فِي الْقَلْبِ بَعْدَ غَفْلَتِهِ عَنْهَا، فَتَرَتَّبَتِ الْمَنَازِلُ الثَّلَاثَةُ أَحْسَنَ تَرْتِيبٍ، ثُمَّ إِنَّ كُلًّا مِنْهَا يُمِدُّ صَاحِبَهُ، وَيُقَوِّيهِ وَيُثَمِّرُهُ.

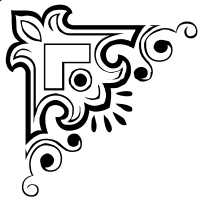

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ

قَالَ -تَعَالَىٰ- فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٦-٣٧].

وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ، فَذَلِكَ الَّذِي لَا قَلْبَ لَهُ، فَهَذَا لَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ذِكْرَىٰ فِي حَقِّهِ.

الثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ مُسْتَعِدٌّ؛ لَكِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَمِعٍ لِلْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ الَّتِي يُخْبِرُ بِهَا اللهُ عَنِ الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ؛ إِمَّا لِعَدَمِ وُرُودِهَا، أَوْ لِوُصُولِهَا إِلَيْهِ وَلَكِنَّ قَلْبَهُ مَشْغُولٌ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَهُوَ غَائِبُ الْقَلْبِ، لَيْسَ حَاضِرًا، فَهَذَا -أَيْضًا- لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَىٰ مَعَ اسْتِعْدَادِهِ وَوُجُودِ قَلْبِهِ.

الثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَأَصْغَىٰ بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَىٰ السَّمْعَ، وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمِ مَا يَسْمَعُهُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ، مُلْقٍ لِلسَّمْعِ، فَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ، وَالْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ.

فَالْأَوَّلُ: بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمَىٰ الَّذِي لَا يُبْصِرُ، وَهُوَ مَنْ مَاتَ قَلْبُهُ، لَا قَلْبَ لَهُ.

وَالثَّانِي: بِمَنْزِلَةِ الْبَصِيرِ الطَّامِحِ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ غَيْرِ جِهَةِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ، فَكِلَاهُمَا لَا يَرَاهُ.

وَالثَّالِثُ: بِمَنْزِلَةِ الْبَصِيرِ الَّذِي قَدْ حَدَّقَ إِلَىٰ جِهَةِ الْمَنْظُورِ، وَأَتْبَعَهُ بَصَرَهُ، وَقَابَلَهُ عَلَىٰ تَوَسُّطٍ مِنَ الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَرَاهُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ!

اعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَكُونُ لَهُ قَلْبٌ وَقَّادٌ، مَلِيءٌ بِاسْتِخْرَاجِ الْعِبَرِ وَاسْتِنْبَاطِ الْحِكَمِ، فَهَذَا قَلْبُهُ يُوقِعُهُ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ، فَإِذَا سَمِعَ الْآيَاتِ كَانَتْ لَهُ نُورًا عَلَىٰ نُورٍ، وَهَؤُلَاءِ أَكْمَلُ خَلْقِ اللهِ، وَأَعْظَمُهُمْ إِيمَانًا وَبَصِيرَةً؛ حَتَّىٰ كَأَنَّ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ قَدْ كَانَ مُشَاهَدًا لَهُمْ؛ لَكِنْ لَمْ يَشْعُرُوا بِتَفَاصِيلِهِ وَأَنْوَاعِهِ؛ حَتَّىٰ قِيلَ: إِنَّ مَثَلَ حَالِ الصِّدِّيقِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ دَخَلَا دَارًا، فَرَأَىٰ أَحَدُهُمَا تَفَاصِيلَ مَا فِيهَا وَجُزْئِيَّاتِهِ، وَالْآخَرُ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَىٰ مَا فِي الدَّارِ وَلَمْ يَرَ تَفَاصِيلَهُ وَلَا جُزْئِيَّاتِهِ؛ لَكِنْ عَلِمَ أَنَّ فِيهَا أُمُورًا عَظِيمَةً لَمْ يُدْرِكْ بَصَرُهُ تَفَاصِيلَهَا، ثُمَّ خَرَجَا، فَسَأَلَهُ عَمَّا رَأَىٰ فِي الدَّارِ، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَخْبَرَهُ بِشَيْءٍ صَدَّقَهُ؛ لِمَا عِنْدَهُ مِنْ شَوَاهِدِهِ، وَهَذِهِ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الصِّدِّيقِيَّةِ، وَلَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَمُنَّ اللهُ الْمَنَّانُ عَلَىٰ عَبْدٍ بِمِثْلِ هَذَا الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ فَضْلَ اللهِ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ وَلَا حُسْبَانٍ.

فَصَاحِبُ هَذَا الْقَلْبِ إِذَا سَمِعَ الْآيَاتِ وَفِي قَلْبِهِ نُورٌ مِنَ الْبَصِيرَةِ؛ ازْدَادَ بِهَا نُورًا إِلَىٰ نُورِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ مِثْلُ هَذَا الْقَلْبِ فَأَلْقَىٰ السَّمْعَ، وَشَهِدَ قَلْبُهُ وَلَمْ

يَغِبْ؛ حَصَلَ لَهُ التَّذَكُّرُ -أَيْضًا-: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، وَالْوَابِلُ وَالطَّلُّ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَآثَارِهَا وَمُوجَبَاتِهَا.

وَأَهْلُ الْجَنَّةِ سَابِقُونَ مُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، وَبَيْنَهُمَا فِي دَرَجَاتِ التَّفْضِيلِ مَا بَيْنَهُمَا؛ حَتَّىٰ إِنَّ شَرَابَ أَحَدِ النَّوْعَيْنِ الصِّرْفَ يُطَيَّبُ بِهِ شَرَابُ النَّوْعِ الْآخَرِ، وَيُمْزَجُ بِهِ مَزْجًا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ:٦].

فَكُلُّ مُؤْمِنٍ يَرَىٰ هَذَا؛ وَلَكِنَّ رُؤْيَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ لَهُ لَوْنٌ، وَرُؤْيَةَ غَيْرِهِمْ لَهُ لَوْنٌ.

❀❀❀

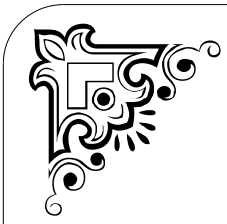

مَعْنَى الِانْتِفَاعِ بِالْعِظَةِ وَنَوْعَاهَا

قَالَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَبْنِيَةُ التَّذَكُّرِ ثَلَاثَةٌ: الِانْتِفَاعُ بِالْعِظَةِ، وَالِاسْتِبْصَارُ بِالْعِبْرَةِ، وَالظَّفَرُ بِثَمَرَةِ الْفِكْرَةِ».

الِانْتِفَاعُ بِالْعِظَةِ: هُوَ أَنْ يَقْدَحَ فِي الْقَلْبِ قَادِحُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَيَتَحَرَّكَ لِلْعَمَلِ؛ طَلَبًا لِلْخَلَاصِ مِنَ الْخَوْفِ، وَرَغْبَةً فِي حُصُولِ الْمَرْجُوِّ.

وَالْعِظَةُ: هِيَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمَقْرُونُ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ.

وَالْعِظَةُ نَوْعَانِ: عِظَةٌ بِالْمَسْمُوعِ، وَعِظَةٌ بِالْمَشْهُودِ:

فَالْعِظَةُ بِالْمَسْمُوعِ: الِانْتِفَاعُ بِمَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْهُدَىٰ وَالرُّشْدِ، وَالنَّصَائِحِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَىٰ لِسَانِ الرُّسُلِ وَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ الِانْتِفَاعُ بِالْعِظَةِ مِنْ كُلِّ نَاصِحٍ وَمُرْشِدٍ فِي مَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَالْعِظَةُ بِالْمَشْهُودِ: الِانْتِفَاعُ بِمَا يَرَاهُ وَيَشْهَدُهُ فِي الْعَالَمِ مِنْ مَوَاقِعِ الْعِبَرِ، وَأَحْكَامِ الْقَدَرِ وَمَجَارِيهِ، وَمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ.

وَأَمَّا الِاسْتِبْصَارُ لِلْعِبْرَةِ؛ فَهُوَ زِيَادَةُ الْبَصِيرَةِ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِ التَّفَكُّرِ بِقُوَّةِ الِاسْتِحْضَارِ؛ لِأَنَّ التَّذَكُّرَ يَصْقُلُ الْمَعَانِيَ الَّتِي حَصَلَتْ بِالتَّفَكُّرِ فِي مَوَاقِعِ

الْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَهُوَ يَظْفَرُ بِهَا بِالتَّفَكُّرِ، وَتَنْصَقِلُ لَهُ وَتَنْجَلِي بِالتَّذَكُّرِ، فَيَقْوَىٰ الْعَزْمُ عَلَىٰ السَّيْرِ بِحَسَبِ قُوَّةِ الِاسْتِبْصَارِ؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ تَحْدِيدَ النَّظَرِ فِيمَا يُحَرِّكُ الْطَّلَبَ؛ إِذِ الطَّلَبُ فَرْعُ الشُّعُورِ، فَكُلَّمَا قَوِيَ الشُّعُورُ بِالْمَحْبُوبِ اشْتَدَّ سَفَرُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، وَكُلَّمَا اشْتَغَلَ الْفِكْرُ بِهِ ازْدَادَ الشُّعُورُ بِهِ، وَالْبَصِيرَةُ فِيهِ، وَالذِّكْرُ لَهُ.

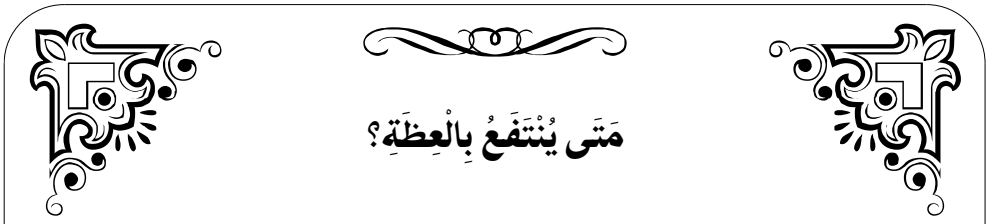

مَتَى يُنْتَفَعُ بِالْعِظَةِ؟

وَإِنَّمَا يُنْتَفَعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَىٰ عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

إِنَّمَا يَشْتَدُّ افْتِقَارُ الْعَبْدِ إِلَىٰ الْعِظَةِ -وَهِيَ التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيبُ- إِذَا ضَعُفَ تَذَكُّرُهُ وَإِنَابَتُهُ؛ وَإِلَّا فَمَتَىٰ قَوِيَتْ إِنَابَتُهُ وَتَذَكُّرُهُ لَمْ تَشْتَدَّ حَاجَتُهُ إِلَىٰ التَّذْكِيرِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَلَكِنْ تَكُونُ الْحَاجَةُ مِنْهُ شَدِيدَةً إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

الْعِظَةُ يُرَادُ بِهَا أَمْرَانِ: الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمَقْرُونَانِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَنَفْسُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.

فَالْمُنِيبُ الْمُتَذَكِّرُ شَدِيدُ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْمُعْرِضُ الْغَافِلُ شَدِيدُ الْحَاجَةِ إِلَىٰ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْمُعَارِضُ الْمُنْكِرُ شَدِيدُ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الْمُجَادَلَةِ.

فَجَاءَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الحج: ١٢٥].

أَطْلَقَ الْحِكْمَةَ، وَلَمْ يُقَيِّدْهَا بِوَصْفِ الْحَسَنَةِ؛ إِذْ كُلُّهَا حَسَنَةٌ، وَوَصْفُ الْحُسْنِ لَهَا ذَاتِيٌّ.

وَأَمَّا الْمَوْعِظَةُ فَقَيَّدَهَا بِوَصْفِ الْإِحْسَانِ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَوْعِظَةٍ حَسَنَةً.

وَكَذَلِكَ الْجِدَالُ قَدْ يَكُونُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْعَمَىٰ عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ حُرِمَ الِانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ، يَعْنِي: إِذَا اشْتَغَلَ بِعَيْبِ الْوَاعِظِ، فَأَخَذَ يَتَذَكَّرُهُ وَيَحُومُ حَوْلَهُ؛ فَإِنَّهُ يُحْرَمُ -حِينَئِذٍ- الِانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِكَلَامِ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَصِفُ لَهُ الطَّبِيبُ دَوَاءً لِمَرَضٍ بِهِ مِثْلُهُ -أَيْ: بِالطَّبِيبِ نَفْسُ الدَّاءِ-، وَالطَّبِيبُ مُعْرِضٌ عَنْهُ، غَيْرُ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ؛ بَلِ الطَّبِيبُ الْمَذْكُورُ عِنْدَهُمْ أَحْسَنُ حَالًا مِنْ هَذَا الْوَاعِظِ الْمُخَالِفِ لِمَا يَعِظُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقُومُ عِنْدَ الطَّبِيبِ دَوَاءٌ آخَرُ يَقُومُ مَقَامَ هَذَا الدَّوَاءِ، وَقَدْ يَرَىٰ أَنَّ بِهِ قُوَّةً عَلَىٰ تَرْكِ التَّدَاوِي، وَقَدْ يَقْنَعُ بِعَمَلِ الطَّبِيعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، بِخِلَافِ هَذَا الْوَاعِظِ؛ فَإِنَّ مَا يَعِظُ بِهِ طَرِيقٌ مُعَيَّنٌ لِلنَّجَاةِ لَا يَقُومُ غَيْرُهَا مَقَامَهَا، وَلَا بُدَّ مِنْهَا، وَلِأَجْلِ هَذِهِ النُّفْرَةِ قَالَ شُعَيْبٌ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود:٨٨]، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُقْبَلَ مِنْكَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ؛ فَإِذَا أَمَرْتَ بِشَيْءٍ فَكُنْ أَوَّلَ الْفَاعِلِينَ لَهُ، الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ، وَإِذَا نَهَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَكُنْ أَوَّلَ الْمُنْتَهِينَ عَنْهُ، وَقَدْ قِيلَ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ؟!

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ مِنَ الضَّنَىٰ ... وَمِنَ الضَّنَىٰ تُمْسِي وَأَنْتَ سَقِيمُ

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وَابْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَانْهَهَـا عَـنْ غَيِّهَـا فَـإِذَا انْتَهَـتْ عَنْـهُ فَأَنْـتَ حَكِـيمُ
فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مَـا تَقُـولُ وَيُقْتَـدَىٰ بِـالْقَوْلِ مِنْـكَ وَيَنْفَـعُ التَّعْلِـيمُ

فَالْعَمَىٰ عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ مِنْ شُرُوطِ تَمَامِ الِانْتِفَاعِ بِمَوْعِظَتِهِ.

وَأَمَّا تَذَكُّرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ خَشْيَتَهُ وَالْحَذَرَ مِنْهُ، وَلَا تَنْفَعُ الْمَوْعِظَةُ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَخَافَهُ وَرَجَاهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِۚ﴾ [هود:١٠٣]، وَأَصْرَحُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق:٤٥].

فَالْإِيمَانُ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَذِكْرُهُ شَرْطٌ فِي الِانْتِفَاعِ بِالْعِظَاتِ وَالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، يَسْتَحِيلُ حُصُولُهُ بِدُونِهِ.

وَإِنَّمَا تُسْتَبْصَرُ الْعِبْرَةُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِحَيَاةِ الْعَقْلِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَيَّامِ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَغْرَاضِ.

وَالْعِبْرَةُ هِيَ الِاعْتِبَارُ، وَحَقِيقَتُهَا: الْعُبُورُ مِنْ حُكْمِ الشَّيْءِ إِلَىٰ حُكْمِ مِثْلِهِ، فَإِذَا رَأَىٰ مَنْ قَدْ أَصَابَتْهُ مِحْنَةٌ وَبَلَاءٌ لِسَبَبٍ ارْتَكَبَهُ؛ عَلِمَ أَنَّ حُكْمَ مَنِ ارْتَكَبَ ذَلِكَ السَّبَبَ كَحُكْمِهِ.

وَحَيَاةُ الْعَقْلِ هِيَ صِحَّةُ الْإِدْرَاكِ، وَقُوَّةُ الْفَهْمِ وَجَوْدَتُهُ، وَتَحْقِيقُ الِانْتِفَاعِ بِالشَّيْءِ وَالتَّضَرُّرِ بِهِ، وَهُوَ نُورٌ يَخُصُّ اللهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَبِحَسَبِ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي قُوَّةِ ذَلِكَ النُّورِ وَضَعْفِهِ، وَوُجُودِهِ وَعَدَمِهِ.. يَقَعُ تَفَاوُتُ أَذْهَانِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ، وَنِسْبَتُهُ إِلَىٰ الْقَلْبِ كَنِسْبَةِ النُّورِ الْبَاصِرِ إِلَىٰ الْعَيْنِ.

وَمِنْ تَجْرِيبَاتِ السَّالِكِينَ الَّتِي جَرَّبُوهَا فَأَلْفَوْهَا صَحِيحَةً: أَنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَوْلَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ؛ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ.

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ- قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- شَدِيدَ اللَّهْجِ بِهَا جِدًّا، وَقَالَ لِي يَوْمًا -لِابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ-: لِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ وَهُمَا: الْحَيُّ الْقَيُّومُ- تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَكَانَ يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُمَا الِاسْمُ الْأَعْظَمُ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ وَاظَبَ عَلَىٰ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ؛ حَصَلَتْ لَهُ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَلَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ.

وَمَنْ عَلِمَ عُبُودِيَّاتِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ، وَالدُّعَاءَ بِهَا، وَسِرَّ ارْتِبَاطِهَا بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَبِمَطَالِبِ الْعَبْدِ وَحَاجَاتِهِ؛ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَطْلُوبٍ يُسْأَلُ بِالِاسْمِ الْمُنَاسِبِ لَهُ، فَتَأَمَّلْ أَدْعِيَةَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ تَجِدْهَا كَذَلِكَ.

وَإِنَّمَا تُسْتَبْصَرُ الْعِبْرَةُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِحَيَاةِ الْعَقْلِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَيَّامِ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَغْرَاضِ..

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْأَيَّامِ؛ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَيَّامَهُ الَّتِي تَخُصُّهُ، وَمَا يَلْحَقُهُ فِيهَا مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَيَعْلَمُ قِصَرَهَا، وَأَنَّهَا أَنْفَاسٌ مَعْدُودَةٌ مُنْصَرِمَةٌ، كُلُّ نَفَسٍ مِنْهَا يُقَابِلُهُ آلَافُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ، فَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ نِسْبَةٌ قَطُّ إِلَىٰ أَيَّامِ الْبَقَاءِ، وَالْعَبْدُ مُنْسَاقٌ زَمَنَهُ فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ إِلَىٰ النَّعِيمِ أَوْ إِلَىٰ الْجَحِيمِ، وَهِيَ كَمُدَّةِ الْمَنَامِ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ حَيٌّ وَقَلْبٌ وَاعٍ، فَمَا أَوْلَاهُ أَلَّا يَصْرِفَ مِنْهَا نَفَسًا إِلَّا فِي أَحَبِّ الْأُمُورِ إِلَىٰ اللهِ، فَلَوْ صَرَفَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ وَتَرَكَ الْأَحَبَّ لَكَانَ مُفَرِّطًا؛

فَكَيْفَ إِذَا صَرَفَهُ فِيمَا لَا يَنْفَعُهُ؟!! فَكَيْفَ إِذَا صَرَفَهُ فِيمَا يَمْقُتُهُ عَلَيْهِ رَبُّهُ؟!!

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِالْأَيَّامِ أَيَّامَ اللهِ الَّتِي أَمَرَ رُسُلَهُ بِتَذْكِيرِ أُمَمِهِمْ بِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾ [إبراهيم: ٥]، وَقَدْ فُسِّرَتْ أَيَّامُ اللهِ بِنِعَمِهِ، وَفُسِّرَتْ بِنِقَمِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، فَالْأَوَّلُ تَفْسِيرُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالثَّانِي تَفْسِيرُ مُقَاتِلٍ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ أَيَّامَهُ تَعُمُّ النَّوْعَيْنِ مِنَ النِّعَمِ وَالنِّقَمِ، وَهِيَ وَقَائِعُهُ الَّتِي أَوْقَعَهَا بِأَعْدَائِهِ، وَهِيَ نِعَمُهُ الَّتِي سَاقَهَا إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِ، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ النِّعَمُ وَالنِّقَمُ الْكِبَارُ الْمُتَحَدَّثُ بِهَا أَيَّامًا؛ لِأَنَّهَا ظَرْفٌ لَهَا، تَقُولُ الْعَرَبُ: فُلَانٌ عَالِمٌ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَأَيَّامِ النَّاسِ، أَيْ: بِالْوَقَائِعِ الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ.

فَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الْأَيَّامِ تُوجِبُ لِلْعَبْدِ الِاسْتِبْصَارَ لِلْعِبْرَةِ، وَبِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ بِهَا تَكُونُ عِبْرَتُهُ وَعِظَتُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ ﴾ [يوسف:١١١].

وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَغْرَاضِ، وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْهَوَىٰ، وَالِانْقِيَادُ لِدَاعِي النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ؛ فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ يَطْمِسُ نُورَ الْعَقْلِ، وَيُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ، وَيَصُدُّ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَيُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَا تَحْصُلُ بَصِيرَةُ الْعِبْرَةِ مَعَهُ الْبَتَّةَ، وَالْعَبْدُ إِذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَدَ رَأْيُهُ، وَفَسَدَ نَظَرُهُ، فَأَرَتْهُ نَفْسُهُ الْحَسَنَ

فِي صُورَةِ الْقَبِيحِ، وَالْقَبِيحَ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ، فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ فَأَنَّىٰ لَهُ الِانْتِفَاعُ بِالتَّذَكُّرِ، أَوْ بِالتَّفَكُّرِ، أَوْ بِالْعِظَةِ؟!!(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «خُلَاصَةُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْعَاشِرَةُ: مَنْزِلَةُ الْإِنَابَةِ - مَنْزِلَةُ التَّذَكُّرِ)، الْأَرْبِعَاءُ ١٥ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٤١هـ| ٨-٤-٢٠٢٠م.

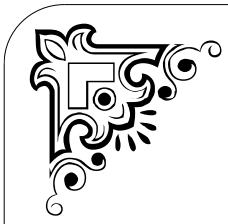

مَجَالَاتُ الِاعْتِبَارِ وَأَنْوَاعُهُ

عِبَادَ اللهِ، لَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى أَخْذِ الْعِبْرَةِ وَالِاعْتِبَارِ؛ حَتَّى تَسْتَقِيمَ حَيَاتُهُ؛ فَلِذَلِكَ خَاطَبَ اللهُ -تَعَالَى- الْخَلْقَ بِأَمْرِ الْعِبْرَةِ وَالِاعْتِبَارِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ مَصَالِحَ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَقَدْ تَنَوَّعَتْ مَجَالَاتُ الِاعْتِبَارِ فِي كِتَابِ اللهِ -تَعَالَى- بَيْنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ [النور: ٤٤].

«وَمِنْ دَلَائِلِ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ: أَنَّهُ يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِمَجِيءِ أَحَدِهِمَا بَعْدَ الْآخَرِ، وَاخْتِلَافِهِمَا طُولًا وَقِصَرًا؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَةً يَعْتَبِرُ بِهَا كُلُّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ»(١).

وَكَذَلِكَ مِنْ مَجَالَاتِ الِاعْتِبَارِ: النَّظَرُ فِي قِصَصِ السَّالِفِينَ، وَالِاسْتِفَادَةُ مِنْهَا فِي حَيَاتِنَا الْحَاضِرَةِ، وَهَذَا مَجَالٌ عَمَلِيٌّ يَتَمَثَّلُ فِي امْتِثَالِ الْبَشَرِ لِأَمْرِ اللهِ -تَعَالَى- بِإِقَامَةِ الْحَيَاةِ عَلَى هُدًى مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بِإِتْيَانِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَالِاعْتِبَارِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأُمَمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٣٥٦).

«﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أَيْ: قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَعَ قَوْمِهِمْ ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أَيْ: يَعْتَبِرُونَ بِهَا أَهْلُ الْخَيْرِ وَأَهْلُ الشَّرِّ، وَأَنَّ مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ نَالَهُ مَا نَالَهُمْ مِنْ كَرَامَةٍ أَوْ إِهَانَةٍ، وَيَعْتَبِرُونَ بِهَا -أَيْضًا- مَا للهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(١).

❀❀❀

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٧١).

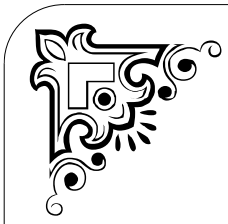

مِنْ مَجَالَاتِ الِاعْتِبَارِ:
الِاعْتِبَارُ بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! إِنَّ مِمَّا دَعَانَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى الِاعْتِبَارِ بِهِ: آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةَ؛ لِتَدُلَّكُمْ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَوُجُوبِ عِبَادَتِهِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٣].

«يَقُولُ تَعَالَىٰ -دَاعِيًا عِبَادَهُ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ-: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات:٢٠] وَذَلِكَ شَامِلٌ لِنَفْسِ الْأَرْضِ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ، وَبِحَارٍ، وَأَنْهَارٍ، وَأَشْجَارٍ، وَنَبَاتٍ تَدُلُّ الْمُتَفَكِّرَ فِيهَا الْمُتَأَمِّلَ لِمَعَانِيهَا عَلَىٰ عَظَمَةِ خَالِقِهَا، وَسِعَةِ سُلْطَانِهِ، وَعَمِيمِ إِحْسَانِهِ، وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ.

وَكَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْعَبْدِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ سُدًى.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات:٢٢] أَيْ: مَادَّةُ رِزْقِكُمْ مِنَ الْأَمْطَارِ، وَصُنُوفُ الْأَقْدَارِ، الرِّزْقُ الدِّينِيُّ وَالدُّنْيَوِيُّ، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢] مِنَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَسَائِرِ الْأَقْدَارِ.

فَلَمَّا بَيَّنَ الْآيَاتِ، وَنَبَّهَ عَلَيْهَا تَنْبِيهًا يَنْتَبِهُ بِهِ الذَّكِيُّ اللَّبِيبُ؛ أَقْسَمَ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ أَنَّ وَعْدَهُ وَجَزَاءَهُ حَقٌّ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِأَظْهَرِ الْأَشْيَاءِ لَنَا، وَهُوَ النُّطْقُ، فَقَالَ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات:٢٣]، فَكَمَا لَا تَشُكُّونَ فِي نُطْقِكُمْ فَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي الشَّكُّ فِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ»(١).

مَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠] **وَمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَظِيمَةِ؛ يَعْلَمُ بِهَا تَمَامَ قُدْرَةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، مَهَّدَهَا اللهُ -تَعَالَى- لِخَلْقِهِ، وَسَلَكَ لَهُمْ فِيهَا سُبُلًا، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا، جَعَلَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ ذَلُولًا يَمْشُونَ فِي مَنَاكِبِهَا، وَيَأْكُلُونَ مِنْ رِزْقِهِ، فَيَحْرُثُونَ وَيَزْرَعُونَ، وَيَصِلُونَ إِلَى الْمِيَاهِ فِي جَوْفِهَا فَيَسْقُونَ وَيَشْرَبُونَ، جَعَلَهَا اللهُ -تَعَالَى- قَرَارًا لِلْخَلْقِ، لَا تَمِيدُ بِهِمْ، وَلَا تَضْطَرِبُ وَلَا تَزَلْزَلُ وَلَا تَتَصَدَّعُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ -تَعَالَى-**(٢)، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق: ٧].

وَالْأَرْضَ بَسَطْنَاهَا وَوَسَّعْنَاهَا، وَأَمْدَدْنَاهَا بِالْعَنَاصِرِ الصَّالِحَةِ لِنَفْعِ النَّاسِ وَرِزْقِهِمْ، وَأَلْقَيْنَا فِيهَا جِبَالًا ثَوَابِتَ تَمْنَعُهَا مِنَ الْمَيَلَانِ وَالِاضْطِرَابِ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ كَرِيمٍ حَسَنٍ يُسَرُّ بِهِ النَّاظِرُ إِلَيْهِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات:٣٠-٣٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٥٥).

(٢) «خطبة: آيات الله الكونية» للعلَّامة: محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[ق: ٧].

وَدَحْرَجَ الْأَرْضَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَجَعَلَهَا كُرَوِيَّةً تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا فِي اتِّجَاهِ الشَّمْسِ دَوْرَةً كَامِلَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَكُونُ مِنْ أَثَرِهَا ظَاهِرَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَدُورُ فِي مَدَارٍ حَوْلَ الشَّمْسِ دَوْرَةً كَامِلَةً فِي كُلِّ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ يَكُونُ مِنْ أَثَرِهَا الْفُصُولُ الْأَرْبَعَةُ، أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ مَاءَهَا بِتَفْجِيرِ الْعُيُونِ، وَإِجْرَاءِ الْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ الْعِظَامِ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا جَمِيعَ مَا يَقْتَاتُ بِهِ النَّاسُ وَالدَّوَابُّ، وَالْجِبَالَ أَثْبَتَهَا فِي الْأَرْضِ كَالْأَوْتَادِ لِيُثَبِّتَ قِشْرَتَهَا؛ كَيْ لَا تَمِيدَ وَتَضْطَرِبَ؛ فَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ لَكُمْ؛ مَنْفَعَةً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ يَنْتَهِي هَذَا الِانْتِفَاعُ الْمُؤَقَّتُ.(*).

فَنِعْمَةُ الْأَرْضِ وَتَسْخِيرُهَا وَتَمْهِيدُهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَّرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ، وَلَفَتَ أَنْظَارَهُمْ إِلَيْهَا، قَالَ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْمُلْكِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

«هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَذَلَّلَهَا؛ لِتُدْرِكُوا مِنْهَا كُلَّ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ حَاجَتُكُمْ؛ مِنْ غَرْسٍ، وَبِنَاءٍ، وَحَرْثٍ، وَطُرُقٍ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَىٰ الْأَقْطَارِ النَّائِيَةِ وَالْبُلْدَانِ الشَّاسِعَةِ؛ ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥] أَيْ: لِطَلَبِ الرِّزْقِ وَالْمَكَاسِبِ.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥] أَيْ: بَعْدَ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ امْتِحَانًا، وَبُلْغَةً يُتَبَلَّغُ بِهَا إِلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ.. تُبْعَثُونَ بَعْدَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [النازعات: ٣٠-٣٢].

مَوْتِكُمْ، وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ اللهِ؛ لِيُجَازِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ»(١). (*).

فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ وَاصِفٌ، وَلَا يُحْصِيهِ قَلَمُ حَاسِبٍ؛ وَلَكِنْ حَسْبَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ فِيمَا يُدْرِكُهُ مِنْهَا وَيَعْتَبِرُ بِهِ نَظَرَ اعْتِبَارٍ فِي أَنَّ اللهَ مَا خَلَقَهَا عَبَثًا ﷻ، وَإِنَّمَا خَلَقَهَا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، سَخَّرَهَا لِعِبَادِهِ، وَسَخَّرَ مَا فِيهَا لِعِبَادِهِ بَنِي آدَمَ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى طَاعَتِهِ -سُبْحَانَهُ- وَعِبَادَتِهِ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَيَنْظُرَ فِيهَا نَظَرَ اعْتِبَارٍ، لَا نَظَرَ نُزْهَةٍ كَمَا يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ أَوْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ!!(٣)

وَكَذَلِكَ تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَاخْتِلَافُ أَحْوَالِهِمَا، وَتَقَلُّبُ أَجْوَائِهِمَا؛ فِي ذَلِكَ عِظَةٌ لِأَصْحَابِ الْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ، وَعِبْرَةٌ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْوَاعِيَةِ؛ حَيْثُ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

يُغَيِّرُ اللهُ أَحْوَالَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَالِابْتِدَاءِ وَالِانْتِهَاءِ؛ بِسَبَبِ حَرَكَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا وَحَوْلَ الشَّمْسِ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَةً لِأَهْلِ الْعُقُولِ وَالْبَصَائِرِ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ.(*/٢).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٣٤) للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «تَفْسِيرُ الْعَلَّامَةِ السَّعْدِيِّ» - الثُّلَاثَاءُ ١١ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣١هـ| ٢٦-١-٢٠١٠م.

(٣) من خطبة: «التفكر والتدبر في مخلوقات الله» - للعلَّامة د/ صالح الفوزان -حفظه الله-.

(*/ ٢) مَا مَرَّ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النور: ٤٤].

«وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مُتَعَاقِبَيْنِ يَخْلُفُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَبِرَ بِمَا فِي ذَلِكَ؛ إِيمَانًا بِالْمُدَبِّرِ الْخَالِقِ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَشْكُرَ للهِ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ»(١).

كَمَا أَنَّ فِي الْمَنَافِعِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ فِي الْأَنْعَامِ لِيَنْتَفِعَ بِهَا بَنُو الْإِنْسَانِ عِبْرَةً لِمَنِ اعْتَبَرَ؛ حَيْثُ بَيَّنَ الْقَدِيرُ -سُبْحَانَهُ- فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ يَسْقِينَا مِنْ ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ لَبَنًا خَالِصًا نَقِيًّا لَذِيذًا يَطِيبُ لِلشَّارِبِينَ، مَعَ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ مَا يَحْتَوِيهِ الْبَطْنُ مِنْ فَضَلَاتٍ، وَمَا فِي الْجِسْمِ مِنْ دَمٍ؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦].

«﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الَّتِي سَخَّرَهَا اللهُ لِمَنَافِعِكُمْ ﴿لَعِبْرَةً﴾ تَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ وَسِعَةِ إِحْسَانِهِ؛ حَيْثُ أَسْقَاكُمْ مِنْ بُطُونِهَا الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ الْفَرْثِ وَالدَّمِ، فَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ لَبَنًا خَالِصًا مِنَ الْكَدَرِ، سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ لِلَذَّتِهِ، وَلِأَنَّهُ يُسْقِي وَيُغَذِّي؛ فَهَلْ هَذِهِ إِلَّا قُدْرَةٌ إِلَهِيَّةٌ، لَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ؟!!

فَأَيُّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ يَقْلِبُ الْعَلَفَ الَّذِي تَأْكُلُهُ الْبَهِيمَةُ، وَالشَّرَابَ الَّذِي تَشْرَبُهُ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ، وَالْمِلْحَ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ؟!!»(٢).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾**﴾ [المؤمنون: ٢١].

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٣٦٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٥١٤).

«وَمِنْ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ: أَنْ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ؛ الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ، فِيهَا عِبْرَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَمَنَافِعُ لِلْمُنْتَفِعِينَ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا مِنْ لَبَنٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ خَالِصٍ سَائِغٍ لِلشَّارِبِينَ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ أَفْضَلَ الْمَآكِلِ مِنْ لَحْمٍ وَشَحْمٍ»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٤٢).

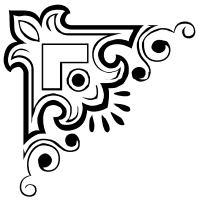

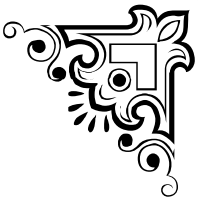

مِنْ أَعْظَمِ مَجَالَاتِ الِاعْتِبَارِ:
الِاعْتِبَارُ بِقَصَصِ الْقُرْآنِ

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى **القَصَصَ القُرْآنِيَّ لِلتَّفَكُّرِ وَالعِبْرَةِ، قَالَ -تَعَالَىٰ-:** ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦-١٧٧].

«﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٦]: اقْصُصْ -أَيُّهَا الرَّسُولُ- أَخْبَارَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ فَفِي إِخْبَارِكَ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مُعْجِزَةٍ؛ لَعَلَّ قَوْمَكَ يَتَدَبَّرُونَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ فَيُؤْمِنُوا لَكَ»(١).

وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

«يَقُولُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ-: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ عِبْرَةٌ لِأَهْلِ الْحِجَا وَالْعُقُولِ يَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَمَوْعِظَةٌ يَتَّعِظُونَ بِهَا»(٢).

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ١٧٣).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٠).

فَصَرَّحَ القُرْآنُ بِأَنَّ فِي تِلْكَ القَصَصِ عِبْرَةً، وَطَرِيقُ الِاعْتِبَارِ بِتِلْكَ القَصَصِ هُوَ تَدَبُّرُ القُرْآنِ.

وَقَدْ أَحْسَنَ الإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الأَعْرَافِ -التِي مَرَّتْ-؛ حَيْثُ كَانَ عَمَلُهُ مِثَالًا يُحْتَذَىٰ فِي التَّدَبُّرِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٦-١٧٩]؛ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: فَاقْصُصْ -يَا مُحَمَّدُ- هَذَا القَصَصَ الذِي اقْتَصَصْتُهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ الذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، وَأَخْبَارِ الأُمَمِ التِي أَخْبَرْتُكَ أَخْبَارَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَاقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ وَنَبَأَ أَشْبَاهِهِمْ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ عُقُوبَتِنَا، وَنَزَلَ بِهِمْ حِينَ كَذَّبُوا رُسُلَنَا مِنْ نِقْمَتِنَا.

اقْصُصْ ذَلِكَ عَلَىٰ قَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ قِبَلَكَ مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِيَتَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ، فَيَعْتَبِرُوا وَيُنِيبُوا إِلَىٰ طَاعَتِنَا؛ لِئَلَّا يَحِلَّ بِهِمْ مِثْلُ الذِي حَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ النِّقَمِ وَالمَثُلَاتِ، وَيَتَدَبَّرَهُ اليَهُودُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَيَعْلَمُوا حَقِيقَةَ أَمْرِكَ

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٠).

وَصِحَّةَ نُبُوَّتِكَ، إِذْ كَانَ نَبَأُ الذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا مِنْ خَفِيِّ عُلُومِهِمْ، وَمَكْنُونِ أَخْبَارِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أَحْبَارُهُمْ وَمَنْ قَرَأَ الكُتُبَ وَدَرَسَهَا مِنْهُمْ، وَفِي عِلْمِكَ بِذَلِكَ وَأَنْتَ أُمِّيٌّ لَا تَكْتُبُ، وَلَا تَقْرَأُ، وَلَا تَدْرُسُ الكُتُبَ، وَلَمْ تُجَالِسْ أَهْلَ العِلْمِ الحُجَّةُ البَيِّنَةُ لَكَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّكَ للهِ رَسُولٌ، وَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ مَا عَلِمْتَ مِنْ ذَلِكَ وَحَالُكَ الحَالُ التِي أَنْتَ بِهَا إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ».

فَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَثَرُ القَصَصِ القُرْآنِيِّ فِي الهِدَايَةِ وَالإِيمَانِ وَاليَقِينِ عِنْدَ التَّدَبُّرِ الصَّحِيحِ، وَالتَّأَمُّلِ بِقَصْدِ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ.(*).

لَقَدْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ قِصَصًا طَيِّبَةً مِنْ أَخْبَارِ أَنْبِيَائِهِ، وَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ، وَهَذَا الْوَصْفُ مِنَ اللهِ الْعَظِيمِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا أَصْدَقُهَا وَأَبْلَغُهَا وَأَنْفَعُهَا لِلْعِبَادِ؛ فَمِنْ أَهَمِّ مَنَافِعِ هَذِهِ الْقِصَصِ: أَنَّ بِهَا يَتِمُّ وَيَكْمُلُ الْإِيمَانُ بِالْأَنْبِيَاءِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ-؛ فَإِنَّنَا وَإِنْ كُنَّا مُؤْمِنِينَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِ الْعُمُومِ وَالْإِجْمَالِ؛ فَالْإِيمَانُ التَّفْصِيلِيُّ الْمُسْتَفَادُ مِنْ قِصَصِهِمْ، وَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الصِّدْقِ الْكَامِلِ، وَالْأَوْصَافِ الْكَامِلَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَىٰ الْأَوْصَافِ، وَمَا لَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ وَالْفَوَاضِلِ وَالْإِحْسَانِ عَلَىٰ جَمِيعِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ؛ بَلْ وَصَلَ إِحْسَانُهُمْ إِلَىٰ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ بِمَا أَبْدَوْهُ لِلْمُكَلَّفِينَ فِي الِاعْتِنَاءِ بِهَا وَالْقِيَامِ بِحَقِّهَا؛ فَهَذَا الْإِيمَانُ التَّفْصِيلِيُّ بِالْأَنْبِيَاءِ يَصِلُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ، وَهُوَ مِنْ مَوَادِّ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَرْبِعَاءُ ١٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ| ٧-٦-٢٠١٧م.

فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ فِي قِصَصِهِمْ تَقْرِيرَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَإِخْلَاصَ الْعَمَلِ لَهُ، وَالْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبَيَانَ حُسْنِ التَّوْحِيدِ وَوُجُوبَهُ، وَقُبْحَ الشِّرْكِ، وَأَنَّهُ سَبَبُ الْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَفِي قِصَصِهِمْ -أَيْضًا- عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَقْتَدُونَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ مَقَامَاتِ الدِّينِ؛ فِي مَقَامِ التَّوْحِيدِ وَالْقِيَامِ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَفِي مَقَامَاتِ الدَّعْوَةِ، وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عِنْدَ جَمِيعِ النَّوَائِبِ الْمُقْلِقَةِ، وَمُقَابَلَةِ ذَلِكَ بِالطُّمَأْنِينَةِ وَالسُّكُونِ وَالثَّبَاتِ التَّامِّ، وَفِي مَقَامِ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ للهِ فِي جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ، وَاحْتِسَابِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، لَا يَطْلُبُونَ مِنَ الْخَلْقِ أَجْرًا وَلَا جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِلَّا الْأُمُورَ النَّافِعَةَ لِلْخَلْقِ.

وَفِيهَا -أَيْضًا- عِبْرَةٌ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ دِينٍ وَاحِدٍ وَأُصُولٍ وَاحِدَةٍ، وَدَعْوَةٌ إِلَىٰ كُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ وَإِصْلَاحٍ، وَزَجْرُهُمْ عَنْ كُلِّ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ.

وَفِيهَا -أَيْضًا- مِنَ الْفَوَائِدِ الْفِقْهِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَسْرَارِ الْحُكْمِيَّةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ لَا غِنَىٰ لِكُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ عَنْهَا.

وَفِيهَا أَيْضًا -أَيْ: فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ- مِنَ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، وَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ بَعْدَ تَعَسُّرِهَا، وَحُسْنِ الْعَوَاقِبِ الْمُشَاهَدَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ وَالْمَحَبَّةِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ مَا فِيهِ زَادٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَسُرُورٌ لِلْعَابِدِينَ، وَسَلْوَةٌ لِلْمَحْزُونِينَ، وَمَوَاعِظُ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ فَلَيْسَ الْمَقْصُودَ مِنْ قِصَصِهِمْ أَنْ تَكُونَ فَقَطْ سَمَرًا، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ الْأَعْظَمُ مِنْهَا: أَنْ

تَكُونَ تَذْكِيرًا وَعِبَرًا.(*).

وَمِنَ الْقِصَصِ الَّتِي قَصَّهَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ: قِصَّةُ يُوسُفَ عليه السلام؛ وَ«هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنْ أَعْجَبِ الْقِصَصِ، وَذَكَرَهَا اللهُ جَمِيعًا، وَأَفْرَدَهَا بِسُورَةٍ مُطَوَّلَةٍ مُفَصَّلَةٍ تَفْصِيلًا وَاضِحًا، قِرَاءَتُهَا تُغْنِي عَنِ التَّفْسِيرِ؛ فَإِنَّ اللهَ سَاقَ فِيهَا حَالَةَ يُوسُفَ مِنَ ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ التَّنَقُّلَاتِ وَاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ، وَقَالَ فِيهَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف: ٧].

إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ مِنْ أَحْسَنِ الْقِصَصِ وَأَوْضَحِهَا؛ لِمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّنَقُّلَاتِ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَمِنْ مِحْنَةٍ إِلَىٰ مِحْنَةٍ، وَمِنْ مِحْنَةٍ إِلَىٰ مِنْحَةٍ وَمِنَّةٍ، وَمِنْ ذُلٍّ إِلَىٰ عِزٍّ، وَمِنْ أَمْنٍ إِلَىٰ خَوْفٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ مِلْكٍ إِلَىٰ رِقٍّ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ فُرْقَةٍ وَشَتَاتٍ إِلَىٰ انْضِمَامٍ وَائْتِلَافٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ سُرُورٍ إِلَىٰ حُزْنٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ رَخَاءٍ إِلَىٰ جَدْبٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ ضِيقٍ إِلَىٰ سَعَةٍ وَبِالْعَكْسِ، وَمِنْ وُصُولٍ إِلَىٰ عَوَاقِبَ حَمِيدَةٍ؛ فَتَبَارَكَ مَنْ قَصَّهَا وَجَعَلَهَا عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ.(*/٢).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَة ١٢)، الْأَرْبِعَاءُ ٢٦ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢-١٠-٢٠١٣م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَة ١٨)، الثُّلَاثَاءُ ٣ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٨-١٠-٢٠١٣م.

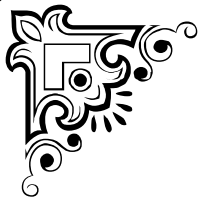

الِاعْتِبَارُ بِمَصِيرِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ

لَا شَكَّ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ حَافِلٌ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الِاعْتِبَارِ بِمَصَائِرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَالِاتِّعَاظِ بِمَا عُوقِبُوا بِهِ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اعْتَبَرَ بِغَيْرِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨].

«أَيْ: أَفَلَمْ يَهْدِ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعْرِضِينَ، وَيَدُلَّهُمْ عَلَىٰ سُلُوكِ طَرِيقِ الرَّشَادِ، وَتَجَنُّبِ طَرِيقِ الْغَيِّ وَالْفَسَادِ مَا أَحَلَّ اللهُ بِالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ الْمُتَتَابِعَةِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ قَصَصَهُمْ، وَيَتَنَاقَلُونَ أَسْمَارَهُمْ، وَيَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَسَاكِنَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ كَقَوْمِ هُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَغَيْرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَنَا، وَأَعْرَضُوا عَنْ كُتُبِنَا أَصَبْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ؟!!

فَمَا الَّذِي يُؤَمِّنُ هَؤُلَاءِ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِأُولَئِكَ؟!!

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾[القمر: ٤٣-٤٤]؟! لَا شَيْءَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ؛ فَلَيْسَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ خَيْرًا مِنْ أُولَئِكَ حَتَّىٰ يُدْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ بِخَيْرِهِمْ، بَلْ هُمْ شَرٌّ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِأَشْرَفِ الرُّسُلِ وَخَيْرِ الْكُتُبِ، وَلَيْسَ لَهُمْ بَرَاءَةٌ مَزْبُورَةٌ وَعَهْدٌ عِنْدَ اللهِ، وَلَيْسُوا كَمَا

يَقُولُونَ: إِنَّ جَمْعَهُمْ يَنْفَعُهُمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ، بَلْ هُمْ أَذَلُّ وَأَحْقَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِهْلَاكُ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بِذُنُوبِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ؛ لِكَوْنِهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِحَّةِ رِسَالَةِ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوهُمْ، وَبُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ مَا كُلُّ أَحَدٍ يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ، إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا أُولُوا النُّهَىٰ؛ أَيِ: الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَالْفِطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَالْأَلْبَابِ الَّتِي تَزْجُرُ أَصْحَابَهَا عَمَّا لَا يَنْبَغِي»[1].

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٨-٩].

«﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم:٨]؛ فَلِذَلِكَ لَمْ يَسْتَعِدُّوا لِلِقَائِهِ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا رُسُلَهُ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهِ.

وَهَذَا الْكُفْرُ عَنْ غَيْرِ دَلِيلٍ، بَلِ الْأَدِلَّةُ الْقَاطِعَةُ دَلَّتْ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ؛ وَلِهَذَا نَبَّهَهُمْ عَلَىٰ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ، وَالنَّظَرِ فِي عَاقِبَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُمْ مِمَّنْ هُمْ أَشَدُّ مِنْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً، وَأَكْثَرُ آثَارًا فِي الْأَرْضِ؛ مِنْ بِنَاءِ قُصُورٍ وَمَصَانِعَ، وَمِنْ غَرْسِ أَشْجَارٍ، وَمِنْ زَرْعٍ، وَإِجْرَاءِ أَنْهَارٍ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّتُهُمْ، وَلَا نَفَعَتْهُمْ آثَارُهُمْ حِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمُ الَّذِينَ جَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٠١).

الدَّالَّاتِ عَلَىٰ الْحَقِّ وَصِحَّةِ مَا جَاءُوهُمْ بِهِ؛ فَإِنَّهُمْ حِينَ يَنْظُرُونَ فِي آثَارِ أُولَئِكَ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أُمَمًا بَائِدَةً، وَخَلْقًا مُهْلَكِينَ، وَمَنَازِلَ بَعْدَهُمْ مُوحِشَةً، وَذَمًّا مِنَ الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ مُتَتَابِعًا.

وَهَذَا جَزَاءٌ مُعَجَّلٌ، نَمُوذَجٌ لِلْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ وَمُبْتَدَأٌ لَهُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ لَمْ يَظْلِمْهُمُ اللهُ بِذَلِكَ الْإِهْلَاكِ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَسَبَّبُوا فِي هَلَاكِهَا»[1].

إِنَّ الْمُؤَرِّخَ ضِيَاءَ الدِّينِ بْنَ الْأَثِيرِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- أَخْرَجَ فِي حَوَادِثِ عَامِ سَبْعَةَ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِائَةٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ (٦١٧هـ)، يُؤَرِّخُ لِوَقَائِعِ دُخُولِ التَّتَارِ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ النَّكْبَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي مُنِيَتْ بِهَا دِيَارُ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

فَيَقُولُ[2]: «وبَقِيتُ دَهْرًا مُتَطَاوِلًا يَقْرُبُ مِنْ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ وَأَنَا أُقَدِّمُ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ، وَلَا تُطَاوِعُنِي نَفْسِي أَنْ أَكْتُبَ فِي هَذَا الْخَطْبِ الْعَظِيمِ حَرْفًا، وَمَنِ الَّذِي يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ نَعْيَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؟!!

فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي! وَيَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ ذَلِكَ وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا!».

قَالَ: «ثُمَّ آمَرَنِي بَعْضُ الْأَصْدِقَاءِ عَلَىٰ ضَرُورَةِ كِتَابَةِ ذَلِكَ الْحَدَثِ وَالتَّأْرِيخِ لَهُ، فَكَتَبْتُ».

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٤٨).

(٢) «الكامل في التاريخ» (١٠/ ٣٣٣).

وَفِي بَعْضِ مَا كَتَبَ ابْنُ الْأَثِيرِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- قَالَ: «وَأَلْقَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْخَوْفَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ التَّتَارِ خَوْفًا عَظِيمًا مُتَنَامِيًا مُتَرَامِيًا أَطْرَافُهُ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ التَّتَرِيَّ الْفَارِسَ كَانَ يَدْخُلُ الْقَرْيَةَ مِنَ الْقُرَىٰ أَوِ الدَّرْبَ مِنَ الدُّرُوبِ، وَفِيهِ جُمْلَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ مَعَ هَذَا التَّتَرِيِّ أَحَدٌ إِلَّا سَيْفَهُ فَقَطْ، فَيُقْبِلُ عَلَيْهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَمَا يَرْفَعُ أَحَدُهُمْ فِي وَجْهِهِ صَوْتًا، وَلَا يُحَرِّكُ أُصْبُعًا؛ مِمَّا أَلْقَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ التَّتَارِ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ».

قَالَ: «وَحَكَىٰ لِي بَعْضُ مَنْ أَثِقُ فِي كَلَامِهِ: أَنَّ فَارِسًا مِنَ التَّتَارِ دَخَلَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ دَرْبًا مِنَ الدُّرُوبِ فَوَجَدَ مُسْلِمًا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ التَّتَرِيِّ مَا يَقْتُلُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْلِمَ، فَأَمَرَ التَّتَرِيُّ الْمُسْلِمَ بِأَنْ يَنَامَ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَأَنْ يَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ التُّرَابِ، وَأَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّىٰ يَذْهَبَ التَّتَرِيُّ فَيَأْتِيَ بِمَا يَقْتُلُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْلِمَ.

وَالْعَجَبُ أَنَّ الْمُسْلِمَ انْصَاعَ لِأَمْرِ ذَلِكَ الْأَعْجَمِيِّ الْأَغْلَمِ، وَنَامَ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَاضِعًا خَدَّهُ عَلَىٰ التُّرَابِ؛ مُنْتَظِرًا مَنْ يَأْتِيهِ بِمَا يَذْبَحُهُ بِهِ، وَقَدْ فَعَلَ!!».

قَالَ: «وَحَكَىٰ لِي بَعْضُهُمْ أَنَّهُ أَتَاهُمْ يَوْمًا وَكَانُوا جَمَاعَةً سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا -أَتَاهَم- تَتَرِيٌّ فَارِسٌ، فَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يُكَتِّفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ: وَأَقْبَلَ الْقَوْمُ يَفْعَلُونَ، **فَقُلْتُ:** وَيْحَكُمْ! إِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ كَثِيرَةٌ قَوِيَّةٌ؛ فَلَوْ أَنَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ، قَالَ: فَمَا اسْتَطَاعَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَرْفَعَ إِلَىٰ التَّتَرِيِّ بَصَرَهُ!!

قَالَ: وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ الرَّجُلِ، فَاسْتَلَلْتُ سِكِّينًا فَذَبَحْتُهُ بِهَا، وَنَجَوْتُ بِمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

مَا الَّذِي أَوْصَلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ هَذَا الدَّرْكِ الْهَابِطِ فِي بَعْضِ تَارِيخِهِمْ؟!! وَهُوَ مُعَرِّضٌ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ حِينٍ وَآنٍ مَتَىٰ مَا تَرَكُوا أَسْبَابَ الْعِزَّةِ وَالنَّصْرِ وَالْقُوَّةِ، وَأَخَذُوا بِأَسْبَابِ الْحِطَّةِ وَالذِّلَّةِ وَالِانْحِطَاطِ.. مُعَرِّضٌ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ حِينٍ وَآنٍ إِلَىٰ أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، وَأَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ -إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا-.

لَوْ أَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَىٰ أَحْوَالِ التَّارِيخِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ السَّحِيقِ بِظُلُمَاتِهِ الْمُتَرَاكِمَاتِ؛ لَوَجَدْتَ الْأَسْبَابَ الصَّارِخَاتِ تَدْعُوا جَمِيعًا إِلَىٰ أَنْ يَصِلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ، وَإِلَىٰ أَبْعَدَ مِمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ.

وَأَعْظَمُ مَا سَلَّطَ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ -وَهُوَ مُسَلِّطٌ بَعْضَهُ أَوْ كلَّهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَتَىٰ مَا أَخَذُوا بِأَسْبَابِهِ-: (الْخَوْفُ).

الْخَوْفُ الَّذِي يُشِلُّ الْحَرَكَةَ، وَيُمِيتُ الْعَزْمَ، وَيُفْسِدُ الْإِرَادَةَ، وَيَقْتُلُ الْحَيَاةَ.

الْخَوْفُ الَّذِي هُوَ عَدُوُّ الْحَيَاةِ بِحَقٍّ، وَالَّذِي جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُحَرِّرَ مِنْهُ الْعِبَادَ، كَمَا قَالَ قَائِلُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدُ لِلْفَارِسِيِّ مِنْ عَبَدَةِ النَّارِ؛ لِيُبَيِّنَ دَعْوَةَ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ بِأَمْرِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ الْغَفَّارِ: «إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ الْعِبَادَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّ الْعِبَادِ».

النَّاظِرُ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي زَمَنِ التَّتَارِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ الْعِبْرَةَ، وَأَنْ يَسْتَخْلِصَ الْمَوْعِظَةَ، وَأَنْ تَكُونَ عَيْنُ قَلْبِهِ وَعَيْنُ بَصِيرَتِهِ مُسَلَّطَةً عَلَىٰ أَحْوَالِ عَالَمِهِ؛ حَتَّىٰ لَا تَتَكَرَّرَ الْمَأْسَاةُ، رُبَّمَا عَلَىٰ يَدِ أَذَلِّ شَعْبٍ وَأَخَسِّهِ فِي الْأَرْضِ قَطُّ!! مَنْ جَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهِمْ مَا فِيهِمْ مِنْ سُوءِ الطِّبَاعِ، وَمَا فِيهِمْ

مِنْ سُوءِ الْجِبِلَّةِ، وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ إِخْوَانِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، هُمْ أَذَلُّ شَعْبٍ وَأَحَطُّهُ قَطُّ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْعَالَمَ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَهُ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ حَالَهُمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبَيَّنَهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ فِي سُنَّتِهِ.

غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ -أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ- يَنْبَغِي أَلَّا يُؤْخَذَ فَطِيرًا[1] سَطْحِيًّا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ زَاوِيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَتُغْفَلُ فِيهِ بَقِيَّةُ الزَّوَايَا، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي النَّظَرِ أَنْ نَفْعَلَ كَمَا يَفْعَلُ الطَّبِيبُ الْحَاذِقُ؛ إِذْ يُقْبِلُ عَلَىٰ مَرِيضِهِ يَسْمَعُ شَكْوَاهُ، وَيَنْظُرُ فِي أَعْرَاضِهِ، ثُمَّ يَضَعُ فِي رَأْسِهِ خُطَّةً مِنْ أَجْلِ مُعَالَجَتِهِ وَمُدَاوَاتِهِ، لَا يُعَالِجُ فِيهَا أَعْرَاضَهُ، وَإِنَّمَا يَبْحَثُ فِيهَا عَنْ أَصْلِ دَائِهِ، وَعَنْ مَكْمَنِ عِلَّتِهِ؛ فَالطَّبِيبُ الْحَاذِقُ لَا يُدَاوِي الْأَعْرَاضَ، وَلَا يُعَالِجُ الظَّوَاهِرَ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ بِطَرَفِ الْخَيْطِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالظَّوَاهِرِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ مَكْمَنِ الْعِلَّةِ، وَعَنْ أَصْلِ الدَّاءِ.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الشَّأْنُ فِي النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ بِعَامَّةٍ، وَفِي أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ بِخَاصَّةٍ -زَادَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُسْلِمِينَ عِزَّةً وَكَرَامَةً، وَرَدَّهُمْ إِلَىٰ دِينِهِ رَدًّا جَمِيلًا؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ-.

الْأَصْلُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تُفْسِدُ الرُّوحَ، وَهِيَ سَمُّ الرُّوحِ -وَكَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ فِي لُغَةٍ ضَعِيفَةٍ بِضَمِّ السِّينِ: سُمُّ الرُّوحِ-، كَمَا أَنَّ الْبَدَنَ يَتَعَرَّضُ لِلْمَرَضِ بِأَسْبَابِهِ وَمُشَخِّصَاتِهِ وَعِلَلِهِ فَيَمْرَضُ، فَلَا يَسْتَقِيمُ عَلَىٰ قَانُونِ الصِّحَّةِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ الْحَيَاةُ، فَكَذَلِكَ الْمَعْصِيَةُ تَدْخُلُ عَلَىٰ الْأَرْوَاحِ وَعَلَىٰ الْقُلُوبِ، ثُمَّ هِيَ عَامِلَةٌ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الْفَرْدِ، وَعَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الْمَجْمُوعِ.

---

(١) رَأْيٌ فَطِيرٌ: رَأْيٌ بِلَا تَفْكِيرٍ أَوْ رَوِيَّةٍ.

أُمَمًا يُذِلُّهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَيَخْسِفُ بِهَا الْأَرْضَ، وَأُمَمًا يُغْرِقُهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْمَاءِ حَتَّىٰ يَصِيرَ الْمَاءُ عَلَىٰ رُءُوسِ الْجِبَالِ، وَأُمَمًا يُمَزِّقُهَا رَبُّكَ بِالصَّيْحَةِ حَتَّىٰ تَتَقَطَّعَ فِي الصُّدُورِ نِيَاطُ الْقُلُوبِ.

كُلُّ ذَلِكَ بِشُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ.

وَإِلَّا فَحَدِّثْنِي بِرَبِّكَ: مَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ؛ مِنْ دَارِ السُّرُورِ وَالْهَنَاءِ وَالْحُبُورِ وَالرَّخَاءِ إِلَىٰ دَارِ النَّصَبِ وَالْعَنَاءِ وَالذُّلِّ وَالشَّقَاءِ؟!!

مَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَبْدَلَهُمَا حَالًا مِنْ بَعْدِ حَالٍ؟!!

إِنَّمَا أَخْرَجَتْهُمَا الْمَعْصِيَةُ.

وَمَا الَّذِي أَبْلَسَ إِبْلِيسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَآيَسَهُ مِنْ ظِلِّ رَحْمَةِ رَبِّهِ -وَإِنَّهَا لَتَسَعُ وَتَسَعُ-، مَا الَّذِي آيَسَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَأَبْلَسَهُ، وَأَبْدَلَ ظَاهِرَهُ أَقْبَحَ مَنْظَرٍ وَأَشْأَمَهُ -وَبَاطِنُهُ أَقْبَحُ مِنْ ظَاهِرِهِ-، وَأَبْدَلَهُ مِنْ هَزَجِ التَّسْبِيحِ وَزَجَلِ التَّهْلِيلِ رِعْدَةَ النَّغَمَاتِ الْفَاسِقَاتِ وَالْكُفْرَانِ وَالْعِصْيَانِ؟!!

مَا الَّذِي أَبْدَلَ إِبْلِيسَ بِمَا كَانَ فِيهِ مِمَّا كَانَ فِيهِ إِلَىٰ مَا صَارَ إِلَيْهِ؟!!

إِنَّمَا صَنَعَ بِهِ ذَلِكَ شُؤْمُ الْمَعْصِيَةِ.

مَا الَّذِي أَغْرَقَ الْأَرْضَ وَأَغْرَقَ قَوْمَ نُوحٍ؛ حَتَّىٰ عَلَتِ الْمِيَاهُ فِي الْأَرْضِ فَغَطَّتْ رُؤُوسَ الْجِبَالِ؟!!

كُلُّ ذَلِكَ بِشُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ.

لِمَاذَا أَهْلَكَتِ الرِّيحُ قَوْمَ عَادٍ فَصَيَّرَتْهُمْ -كَمَا وَصَفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ- كَـ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٧]، ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة: ٦]؟!!

يَصِفُهَا رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَنَّهَا ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ثُمَّ يُقَرِّرُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنَّهُ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٨]، ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾ [النجم: ٥٠-٥١].

وَأَمَّا ثَمُودُ؛ فَبِشُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَرْسَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِمُ الصَّيْحَةَ؛ فَتَمَزَّقَتِ الْقُلُوبُ فِي الْأَجْوَافِ، فَصَارُوا كَالرِّمَمِ الْبَالِيَاتِ.

مَا الَّذِي رَفَعَ قُرَىٰ اللُّوطِيَّةِ إِلَىٰ مُسْتَوًىٰ تَسْمَعُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، ثُمَّ قَلَبَهَا، وَأَمْطَرَهُمُ الْحِجَارَةَ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ خَسَفَ بِهِمُ الْأَرْضَ؛ فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ عَلَىٰ أُمَّةٍ فِي الْأَرْضِ قَطُّ؟!!

وَلِلظَّالِمِينَ أَمْثَالُهَا، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٣].

مَا الَّذِي سَلَّطَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَسَامَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِقَتْلِ الذُّرِّيَّةِ، وَسَبْيِ النِّسَاءِ، وَفِعْلِ الْفَوَاحِشِ، وَالْإِذْلَالِ، وَهَتْكِ الْأَعْرَاضِ؟!!

كُلُّ ذَلِكَ بِشُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود:٨٣].

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- فِي «الزُّهْدِ»(١) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ

---

(١) «**الزهد**» لأحمد: (ص ١١٧، رقم ٧٦٣)، وأخرجه أيضا الفزاري في «**السير**»: (ص١٤٢، رقم ١٠٨)، وسعيد بن منصور في «**السنن**»: (٢/ ٢٩٠ و ٢٩١، رقم

-رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ-، قَالَ: «لَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ قُبْرُسَ[١] فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَجَلَسَ أَبُو الدَّرْدَاءِ صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ نَاحِيَةً يَبْكِي.

قَالَ: فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ! تَبْكِي فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَنَصَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهِ جُنْدَ مُحَمَّدٍ الْأَمِينِ ﷺ؟!!

فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ! مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَىٰ اللهِ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ، بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ ظَاهِرَةٌ قَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ، إِذْ عَصَوْا أَمْرَ اللهِ؛ فَصَيَّرَهُمُ اللهُ إِلَىٰ مَا تَرَىٰ».

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-[٢]: أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَمَّا أَنْزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ قَوْلَهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، فَقَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»،

=

٢٦٦٠)، وابن أبي الدنيا في «**العقوبات**» ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا الحديثية: (٤/ ١٠٥، رقم ٢)، والطبري في «**تاريخ الرسل والملوك**»: (٤/ ٢٦٢)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: (١/ ٢١٦- ٢١٧)، بإسناد صحيح.

(١) «قُبْرُس» بضم أوله وسكون ثانيه ثم ضم الراء وسين مهملة، كذا ضبطها أهل اللغة والبلدان بالسِّين، وَلَا يَهُولَنَّكَ تتابع العوام علىٰ الغلط.

انظر: «**المسالك والممالك**» للبكري: (١/ ٤٨١، رقم ٨١٠)، و «**معجم البلدان**» لياقوت: (٤/ ٣٠٥)، و «**سهم الألحاظ في وهم الألفاظ**»: (ص ٤٦، رقم ٦٩)، و «**خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام**»: (ص ٤٦)، و «**لسان العرب**»: (٦/ ١٦٨) مادة: (قبس)، و «**القاموس المحيط**»: (ص ٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: (٨/ ٢٩١، رقم ٤٦٢٨)، من حديث: جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]؛ قَالَ: «**هَاتَانِ أَهْوَنُ، -أَوْ أَيْسَرُ-**».

وَلَوْ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا لَرَفَعَهَا؛ إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ لَمْ يَسْأَلْ رَبَّهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ مَنَعَهُ مِنْهُ سَلَفًا ﷺ.

فَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ فِيمَا يَرْوِيهِ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ»(١): «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ -أَيْ: بِالْمَجَاعَةِ- فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**».

وَفِي حَدِيثٍ: «**إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ -أَيْ: بِمَجَاعَةٍ عَامَّةٍ-، وَأَلَّا يُسَلِّطَ**

---

(١) «**صحيح مسلم**»: (٤/ ٢٢١٦، رقم ٢٨٩٠)، من حديث: سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**».

أما سؤال الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ؛ فأخرجه مسلم أيضا: (٤/ ٢٢١٥، رقم ٢٨٨٩)، من حديث: ثَوْبَانَ رضي الله عنه.

عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا؛ حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

فَأَبَىٰ ربُّكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ؛ حَتَّىٰ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ ﷺ.

كَمَا يَفْعَلُ الطَّبِيبُ الْحَاذِقُ فِي النَّظَرِ إِلَىٰ مَرِيضِهِ الْمَطْرُوحِ بَيْنَ يَدَيْهِ.. الْمُنْطَرِحِ تَحْتَ عَيْنَيْهِ بِنَفَاذِ بَصَرٍ وَنُفُوذِ بَصِيرَةٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُشَخِّصَ الدَّاءَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَيَسْتَطِيعَ تَبَعًا أَنْ يَصِفَ الدَّوَاءَ صَحِيحًا.

فَلْنَنْظُرْ فِي كِتَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَسُنَّةِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ؛ عَسَىٰ أَنْ يَدُلَّنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِهِ الْكَوْنِيَّةِ هِيَ عَامِلَةٌ فِي دُنْيَا النَّاسِ حَتَّىٰ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، مَنْ سَارَ عَلَىٰ نَهْجِهَا أَنْجَحَ وَأَفْلَحَ، وَمَنْ لَمْ يَسِرْ عَلَىٰ دَرْبِهَا، وَتَنَكَّبَهَا مُسْتَدْبِرًا إِيَّاهَا؛ تَرَدَّىٰ فِي نَتَائِجِهَا لَا مَحَالَةَ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّكَ قَدَرًا مَقْدُورًا.

يَقُولُ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي وَصْفِ مَصَارِعِ الْغَابِرِينَ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ إِلَّا لِيَعْبُدُوهُ، وَأَنْعَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ -فِي الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِيَضْرِبَهُ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، أَنْعَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ- عَلَىٰ قَرْيَةٍ لَا يُهِمُّ بِحَالٍ أَنْ نَعْرِفَ اسْمَهَا وَلَا رَسْمَهَا، وَإِنَّمَا فَحْوَىٰ

الْخِطَابِ، وَإِنَّمَا دَلَالَةُ الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ؛ لِأَنَّهَا إِنَّمَا هِيَ سَارِيَةٌ فِي كَوْنِ اللهِ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ [النحل:١١٢] بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ، وَالْعِزَّةِ وَالِاطْمِئْنَانِ، ثُمَّ يَأْتِيهَا الرِّزْقُ كَمَا وَصَفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْحَالَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٦].

انْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِ رَبِّكَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة:٦٦]؛ وَلَكِنَّهُمْ -وَا أَسَفَاهُ!!- أَعْرَضُوا عَنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَخَذَهُمْ رَبُّكَ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

وَلِلظَّالِمِينَ أَمْثَالُهَا!!

قَرْيَةٌ مَضْرُوبَةٌ مَثَلًا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل:١١٢]، وَانْظُرْ لَا مُفَسِّرًا وَلَا مُؤَوِّلًا، وَإِنَّمَا مُصْغِيًا بِسَمْعِ الْقَلْبِ لِجَرْسِ كَلِمَةِ (الرَّغَدِ): ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَضْرِبُ لَنَا الْمَثَلَ فِي الْقُرْآنِ تِلْوَ الْمَثَلِ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف:٥٨].

لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَطَاعُوا رَبَّ النَّاسِ عَلَىٰ يَدِ خَيْرِ النَّاسِ ﷺ؛ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، وَلَأَتَاهُمُ الرِّزْقُ ﴿رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل:١١٢].

إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَبْدَلُوا النِّعْمَةَ كُفْرَانًا، وَلَمْ يُقْبِلُوا عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالشُّكْرَانِ؛ أَذَاقَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، وَأَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِمُ السُّخْطَ، كَمَا بَيَّنَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَفِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ يَأْتِي عَنْ سَبِيلِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ.

وَانْظُرْ عَنِ النَّبَأِ الْمَضْرُوبِ فِي كِتَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِأُمَّةٍ ظَاهِرَةٍ قَاهِرَةٍ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥].

﴿كَانَ لِسَبَإٍ﴾ [سبأ:١٥]، وَسَبَأٌ هَذَا أَبُو عَشِيرَةٍ مِنَ الْعَشَائِرِ الْعَظِيمَةِ، انْتَشَرَتْ فِي الْجَزِيرَةِ كُلِّهَا بَعْدُ، مِنْهُمُ: الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي يَثْرِبَ -فِي مَدِينَةِ النَّبِيِّ ﷺ-، فَهُوَ أَبُوهُمُ الْأَعْلَىٰ، وَمِنْهُمْ: غَسَّانُ فِي الشَّامِ، وَمِنْهُمْ: خُزَاعَةُ فِي تِهَامَةَ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ كَثِيرٌ مِنْ جُذَامَ وَعَامِلَةَ وَلَخْمٍ، وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ.

كُلُّ هَؤُلَاءِ فِي جَنُوبَيِ الْيَمَنِ، يَضْرِبُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَنَا بِهِمُ الْمَثَلَ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ -كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ- جَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ؛ لِكَيْ يَتَنَاقَلَ النَّاسُ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ جِيلًا مِنْ بَعْدِ جِيلٍ؛ لِيَرَوُا الْعِبْرَةَ، وَلِيَتَلَمَّسُوا الْمَوْعِظَةَ، وَأَنَّ النَّاسَ إِذَا أَطَاعُوا اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ كَفَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَتَاهُمُ النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَإِذَا كَفَرُوا نِعْمَةَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَذَاقَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ -بِمَا قَدَّمَتِ الْأَيْدِي- ذُلًّا، وَخَسْفًا، وَمَسْخًا، وَعَذَابًا، وَتَقْتِيرًا، وَقُوتًا لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْكَدِّ وَالْكَدْحِ وَالنَّصَبِ، وَرُبَّمَا لَا يَأْتِي بِحَالٍ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ-.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ [سبأ:١٥] فِي جَنُوبَيِ الْيَمَنِ ﴿ءَايَةٌ﴾؛ أَيْ: عَلَامَةٌ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ لِكُلِّ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ:١٥]؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ وَادٍ مُتَّسِعٌ، وَعَلَىٰ فَمِ الْوَادِي جَبَلَانِ عَظِيمَانِ، وَكَانَ السَّيْلُ يَنْزِلُ غَزِيرًا مِدْرَارًا، فَيَسِيرُ مِنْ بَيْنِ السَّدَّيْنِ، حَتَّىٰ إِذَا مَا أَتَىٰ إِلَىٰ الْوَادِي تَشَتَّتَ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ شَيْئًا، فَهُدُوا -بِأَمْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ- إِلَىٰ إِقَامَةِ سَدٍّ بَيْنَ هَذَيْنِ الْجَبَلَيْنِ -هُوَ: سَدُّ مَأْرِبَ-، كَمَا قَالَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ النِّعْمَةَ الظَّاهِرَةَ: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ:١٥] عَلَىٰ هَذَا الْجَبَلِ وَذَاكَ؛ عَلَىٰ سَفْحِهِ، وَحَوَالَيْهِ، وَعَلَىٰ قِمَّتِهِ، وَفِي بَطْنِ الْوَادِي.

وَانْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي وَصْفِ النِّعْمَةِ: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ:١٥] مُوَحِّدِينَ لِلَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ:١٥].

وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ:١٥] كَلَامٌ طَوِيلٌ لَا يَفْرُغُ بِحَالٍ.

فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْبَلْدَةَ كَانَ مَنَاخُهَا مُعْتَدِلًا جِدًّا؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَا يُرَىٰ فِيهَا ذُبَابٌ، وَلَا بَعُوضٌ، وَلَا بَرَاغِيثُ، وَلَا هَوَامٌّ فِي الْأَرْضِ بِحَالٍ، ثُمَّ إِنَّ الْمَنَاخَ أَعْدَلُ مَا يَكُونُ، وَأَجْلَىٰ مَا يَكُونُ، وَأَصْفَىٰ مَا يَكُونُ، كَأَنَّمَا أَتَتْ ذَلِكَ الْمَكَانَ -بِقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ- نَفْحَةٌ مِنْ جَنَّاتِ عَدْنٍ بِنَسِيمٍ وَهَوَاءٍ، وَخُضْرَةٍ وَاخْضِرَارٍ، ثُمَّ بِخُلُوٍّ

مِنْ كُلِّ مَا يُنَغِّصُ.

وَشَيْءٌ آخَرُ: أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَأْخُذُ مِكْتَلًا أَوْ زِنْبِيلًا عَلَىٰ رَأْسِهَا مِمَّا تُجْنَىٰ فِيهِ الثِّمَارُ، ثُمَّ تَسِيرُ بِهَذَا الْمِكْتَلِ عَلَىٰ رَأْسِهَا تَحْتَ الْأَشْجَارِ، لَا تُكَلِّفُ نَفْسَهَا مَؤُونَةَ قَطْفٍ وَلَا بَحْثٍ عَنْ قِطَافٍ، وَإِنَّمَا تَسِيرُ تَحْتَ الْأَشْجَارِ فَتَتَسَاقَطُ الْأَثْمَارُ، فَإِذَا خَرَجَتْ مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي، أَوْ خَرَجَتْ مِنْ تِلْكَ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنْ ذَلِكَ الْبُسْتَانِ؛ وَجَدَتْ مِكْتَلَهَا قَدْ أَرْبَىٰ وَزَادَ عَلَىٰ مِلْئِهِ بِمَا لَا يُوصَفُ وَلَا يُقَدَّرُ؛ بِعَطَاءٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥]، وَالْعَبْدُ مَهْمَا وَصَلَ وَمَهْمَا أُنْعِمَ عَلَيْهِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَلَبَّسَ بِالذَّنْبِ، فَيَأْتِي قَوْلُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥]، غَفُورٌ لَكُمْ إِذَا مَا وَقَعْتُمْ فِي الْمَعْصِيَةِ بِغَلَبَةِ نَفْسٍ، وَأُخْذَةِ شُبْهَةٍ وَشَهْوَةٍ، ثُمَّ عُدْتُمْ وَرَجَعْتُمْ وَنَدِمْتُمْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ، عِنْدَ ذَلِكَ تَجِدُونَ رَبَّكُمْ غَفُورًا رَحِيمًا، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ.

فَمَاذَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ؟!! ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ:١٦-١٧].

﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾؛ فَانْظُرْ مَاذَا صَنَعَ رَبُّكَ بِهِمْ؛ سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْجُرُذَ، سَلَّطَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِمُ الْفِئْرَانَ، فَأَخَذَتِ الْفِئْرَانُ تَنْخُرُ فِي أَصْلِ هَذَا السَّدِّ التُّرَابِيِّ، ثُمَّ جَاءَ السَّيْلُ -﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾- بِمَا يَحْمِلُ مِنْ حِجَارَةٍ، وَبِمَا فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ وَانْدِفَاعٍ، فَأَطَاحَ وَأَذْهَبَ بَقِيَّةَ السَّدِّ مِمَّا لَمْ تَقْوَ عَلَيْهِ الْفِئْرَانُ، فَأَغْرَقَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

عَلَيْهِمْ وَادِيَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ الْمَاءَ انْحَسَرَ، ثُمَّ إِنَّ مَنْسُوبَهُ انْحَدَرَ فَلَمْ يَبْلُغْ قِمَّةَ جَبَلٍ وَلَا سَفْحَهُ، وَعَادَتِ الْجَنَّتَانِ كَمَا وَصَفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي التَّبْدِيلِ.

حَتَّىٰ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ -رَبُّنَا سُبْحَانَهُ- فِي هَذَا التَّبْدِيلِ مِنْ شَيْءٍ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَهُ؛ عِنْدَمَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ مَا وَقَعَ قَلَّلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾، شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ ثَمَرٍ، وَالْأَثْلُ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ الطُّرَفَاءُ، وَأَمَّا السِّدْرُ فَهُوَ شَجَرُ النَّبْقِ الْمَعْرُوفُ، وَهُوَ أَعْدَلُ وَأَحْلَىٰ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ عِنْدَ التَّبْدِيلِ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ النِّعْمَةِ الَّتِي غُيِّرَتْ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَمْ يَشْكُرُوا اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَلَمْ يُحْسِنُوا أَدَاءَ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا يَنْبَغِي، وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي كُلِّ حِينٍ وَحَالٍ.

﴿وَشَيْءٍ﴾، وَهَكَذَا بِهَذَا التَّنْكِيرِ الَّذِي يُفِيدُ التَّقْلِيلَ وَالتَّحْقِيرَ، ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾، وَهَذَا التَّبْعِيضُ الَّذِي يَأْتِي قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿سِدْرٍ﴾، ﴿مِّن سِدْرٍ﴾، ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾، ثُمَّ أَتَىٰ بِالتَّقْلِيلِ؛ فَيَا لَلَّهِ مِنْ هَذَا التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ.

وَلِلظَّالِمِينَ أَمْثَالُهَا -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ-.

إِنَّ أَقْوَامًا يَغْتَرُّونَ بِالنِّعْمَةِ الظَّاهِرَةِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ الْحَالَ يَدُومُ مَعَ الْمَعْصِيَةِ، وَهَذَا وَهْمٌ وَكَذِبٌ؛ فَإِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُحَابِي أَحَدًا، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يَمُتُّ إِلَيْهِ أَحَدٌ بِنَسَبٍ وَلَا قَرَابَةٍ وَلَا صِهْرٍ -تَعَالَىٰ وَتَنَزَّهَ سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ-.

الْكُلُّ عَبِيدٌ عَلَىٰ قَانُونِ الْعُبُودِيَّةِ يَسِيرُونَ، فَإِنْ أَتَوْا بِقَانُونِهَا وَلَوَازِمِهَا

وَمَلْزُومَاتِهَا؛ آتَاهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْفَضْلَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أَمْلَىٰ لَهُمْ ظَاهِرًا؛ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُمْ لَمْ يُفْلِتْهُمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ؛ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ.

بَلْ هُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]؛ فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ قَانُونِهِ الْكَوْنِيِّ، وَمِنْ سُنَنِهِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَامِلَةِ فِي دُنْيَا النَّاسِ: أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ الْعَبْدَ يُعْطَىٰ النِّعْمَةَ فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ النِّعْمَةِ إِلَّا مَعْصِيَةً لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّ أَخْذَهُ آتٍ وَشِيكٌ لَا مَحَالَةَ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ-.

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَجْرَىٰ عَلَىٰ فَمِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ حَدِيثًا مِنْ أَحَادِيثِهِ الْعَظِيمَةِ -وَكُلُّ أَحَادِيثِهِ عَظِيمَةٌ ﷺ- يُشَخِّصُ لَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ ثَوْبَانُ، وَأَخْرَجَهُ عَنْهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «السُّنَنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا** -وَفِي رِوَايَةٍ: **عَلَىٰ قَصْعَتِهَا**-»، هَلُمُّوا هَلُمُّوا إِلَىٰ هَذَا الطَّعَامِ.

فَالْأُمَمُ كَمَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ -وَالْحَدِيثُ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنْ آيَةٍ وَعَلَامَةٍ عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا هَذَا الْحَدِيثُ لَكَفَىٰ وَشَفَىٰ، وَقَادَ قُلُوبَ أَقْوَامٍ بِأَزِمَّتِهَا إِلَىٰ سَوَاءِ الْإِيمَانِ، وَإِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ عُقُودٍ مُتَطَاوِلَاتٍ، وَيَأْتِي بَيَانُهُ الْكَرِيمُ مُتَحَدِّرًا فِي ظِلَالٍ وَنَدًىٰ يَطْرُقُ سَمْعَ الزَّمَانِ لِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةٌ مُؤْمِنَةٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ-: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا** -أَوْ: **عَلَىٰ قَصْعَتِهَا**-».

أَكَلَةٌ وَضَعُوا قَصْعَةً بِطَعَامٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا: هَلُمَّ هَلُمَّ إِلَىٰ الطَّعَامِ الْهَنِيءِ.. وَالنَّاسُ يَأْتُونَ إِلَىٰ هَذَا الْأَكْلِ الَّذِي يُسَاغُ أَوْ لَا يُسَاغُ.

وَالرَّسُولُ ﷺ يَأْتِي لَنَا بِالْمَثَلِ الْمَحْسُوسِ: الْأُمَمُ سَتَتَدَاعَىٰ عَلَيْكُمْ -يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ!- كَمَا تَتَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا؛ فَتَصِيرُونَ فَرِيسَةً -كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ- لِأَكَلَةٍ يَتَدَاعَوْنَ، يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَكْفِي أَنْ يُلِمَّ أَحَدُهُمْ بِمَائِدَتِهِ فَيَأْكُلَ مِنْهَا مَا يَشَاءُ مُكْتَفِيًا بِمَا يَأْكُلُ مِنْ هَذَا الزَّادِ؛ سَوَاءٌ كَانَ حَلَالًا أَمْ كَانَ حَرَامًا، وَإِنَّمَا يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا: هَلُمَّ هَلُمَّ إِلَىٰ هَذَا الطَّعَامِ!

فَتُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَتَدَاعَىٰ عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَرِيسَةً، كَمَا وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ.

فَقَالَ قَائِلٌ: «أَوَ مِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟».

فَقَالَ: «**لَا؛ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ وَلَكِنْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**».

وَالْغُثَاءُ: هُوَ مَا يَحْمِلُهُ الْمَاءُ إِذَا مَا جَرَىٰ مِمَّا يَجْرِفُهُ مِمَّا لَا قِيمَةَ لَهُ مِنْ زَبَدِ الْمَاءِ الْمُتَطَايِرِ، وَمِنْ قَشِّ الْأَرْضِ وَحَصَاهَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَسْبَحَ هَكَذَا طَافِيًا مُتَأَرْجِحًا مَعَ نَغَمَاتِ مَاءٍ مُنْسَابٍ، فَهَذَا هُوَ الْغُثَاءُ؛ بَلْ إِنَّ الْغُثَاءَ يَحْمِلُ فِيمَا يَحْمِلُ جِيَفَ حَيَوَانَاتٍ نَفَقَتْ، وَرِمَمَ وَجُثَثَ قِطَطٍ وَكِلَابٍ أُزْهِقَتْ أَرْوَاحُهَا، كُلُّ ذَلِكَ يُحْمَلُ غُثَاءً يَحْمِلُهُ السَّيْلُ.

«**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ وَلَكِنْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**».

قِيلَ: «وَمَا الْوَهَنُ يَا رَسُولَ اللهِ؟».

قَالَ: «**كَرَاهَةُ الْمَوْتِ، وَحُبُّ الدُّنْيَا**»، أَوْ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»(١).

وَالْحَدِيثُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُطَبَّقٌ عَلَىٰ الْأُمَّةِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ -فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ مَنْ أَرْسَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ-.

يَقُولُ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ**»، وَكَأَنَّهُ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ لِكُلِّ مُعَامَلَةٍ رِبَوِيَّةٍ فِيمَا يَأْخُذُ بِهِ النَّاسُ فِي أَصْنَافِ الْمُعَامَلَاتِ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**»(٢).

وَصَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كُلِّ مَا قَالَ، الْأَمْرُ كَمَا وَصَفَ الْمُخْتَارُ ﷺ، وَمَا مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ رَفْعِ الذُّلِّ عَنِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِالْعَوْدَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج:٤٠-٤١].

---

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: (٤/ ١١١، رقم ٤٢٩٧)، من حديث: ثَوْبَانَ رضي الله عنه.
والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (٢/ ٦٤٧، رقم ٩٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: (٣/ ٢٧٤، رقم ٣٤٦٢)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.
والحديث صححه بمجموع طرقه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٤٢، رقم ١١).

وَانْظُرْ إِلَىٰ هَذَا الْقَانُونِ الْعَظِيمِ فِيمَا يَأْتِي مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠].

انْظُرْ إِلَىٰ الْمُؤَكِّدَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ بِالْقَسَمِ الْمُضْمَرِ وَالْإِتْيَانِ بِـ(وَاوِهِ): ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ [الحج:٤٠].

ثُمَّ بِإِدْخَالِ اللَّامِ الْمُؤَكِّدَةِ، ثُمَّ بِالنُّونِ الْمُشَدَّدَةِ الْمُثَقَّلَةِ الَّتِي تَأْتِي لِتَوْكِيدِ الْأَمْرِ وَتَأْكِيدِهِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠].

ثمَّ انْظُرْ إِلَىٰ التَّوْكِيدِ الْمَعْنَوِيِّ فِي قَوْلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠]؛ فَهَذَا مُؤَكِّدٌ مَعْنَوِيٌّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، مَا دَامَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَنْ يَنْصُرُهُ لَا مَحَالَةَ.

ثُمَّ انْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِ رَبِّكَ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١].

لَمْ يَقُلْ: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا مَسَارِحَ الْفَنِّ، وَدُورَ الْبَطَالَةِ، وَمَشَارِبَ الْخُمُورِ!!

لَمْ يَقُلْ: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ عَاثُوا فِيهَا فَسَادًا!!

وَإِنَّمَا شَخَّصَ رَبُّكَ وَوَصَفَ مَعَ التَّشْخِيصِ دَوَاءَ الدَّاءِ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١].

وَانْظُرْ إِلَىٰ هَذَا التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِ رَبِّك تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١]؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا قَالَ إِنْسَانٌ: كَيْفَ بِنَا وَنَحْنُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ ضَعْفٍ وَمِنْ قِلَّةٍ وَمِنْ فَقْرِ ذَاتِ يَدٍ أَنْ نُقَاوِمَ أُمَمَ الْأَرْضِ مِمَّنْ أُوتُوا بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ؟

فَتْحًا عَلَيْهِمْ، لَا فَتْحًا بِهِمْ، وَلَا فَتْحًا لَهُمْ، وَإِنَّمَا فَتْحًا عَلَيْهِمْ؛ حَتَّىٰ إِذَا مَا اسْتَتَمَّ لَهُمُ الْأَمْرُ ظَاهِرًا أَخَذَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

وَلِلظَّالِمِينَ أَمْثَالُهَا!!

رُبَّمَا أَتَىٰ هَذَا الْخَاطِرُ فِي خَاطِرِ إِنْسَانٍ يَسْبَحُ فِيهِ وَيَجُولُ، فَيَأْتِي التَّذْيِيلُ فِي الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١]؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

فَمَا عَلَىٰ النَّاسِ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ وَإِلَّا فَالْجَمِيعُ فِي سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَوَيْلٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرِقَ السَّفِينَةَ لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا -رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا-.

تُوبُوا لِلَّهِ، وَأَحْدِثُوا لِلَّهِ تَوْبَةً؛ وَإِلَّا فَإِنَّ الْكُلَّ فِي سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَسَيَغْرِقُ الْجَمْعُ كُلُّهُ لَا مَحَالَةَ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْجَمْعَ بِرَحْمَتِهِ؛ فَاللَّهُمَّ تَدَارَكْنَا جَمِيعًا بِرَحْمَتِكَ؛ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «وَلِلظَّالِمِينَ أَمْثَالُهَا».

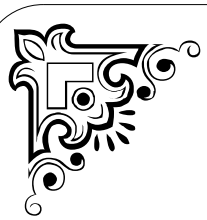

الِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ بِالتَّارِيخِ وَحَوَادِثِهِ

إِنَّ مِنْ مَجَالَاتِ الدَّعْوَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَأُصُولِهَا: دَعْوَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّارِيخِ وَأَحْدَاثِهِ وَأَيَّامِهِ، وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ فِي الزَّمَانِ الْمُنْقَضِي، وَالتَّبَصُّرِ بِعَوَاقِبِهِمْ؛ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْقَصَصِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْأُمَمِ وَالْأَقْوَامِ وَالْقَبَائِلِ، وَبَيَانَ أَعْمَالِهِمْ وَحَضَارَاتِهِمْ، وَبَيَانَ أَحْوَالِ الْمُكَذِّبِينَ لِلْوَحْيِ وَالرُّسُلِ مِنْهُمْ، وَمَعْرِفَةَ عَوَاقِبِهِمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ وَالدُّرُوسِ وَالْعِظَاتِ مَا يَجْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مُعْتَبَرًا وَإِصْلَاحًا لِلْمُسْتَقْبَلِ الْقَادِمِ مِنْ بَعِيدٍ -بِإِذْنِ اللهِ-(١).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

«﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أَيْ: بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَبِأَيَّامِهِ فِي الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ، وَوَقَائِعِهِ بِالْكَافِرِينَ؛ لِيَشْكُرُوا نِعَمَهُ، وَلِيَحْذَرُوا عِقَابَهُ؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: فِي أَيَّامِ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ لَآيَاتٍ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيْ: صَبَّارٍ فِي الضَّرَّاءِ وَالْعُسْرِ وَالضِّيقِ، شَكُورٍ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالنِّعْمَةِ»(٢).

---

(١) من مقال: «الدعوة إلىٰ معرفة التاريخ وقصص الأمم السابقة للاعتبار والعظة».

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٨٨).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

«مِنَ الْحِكَمِ فِي ذَلِكَ: أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ يُعْطِي اللهُ مِنْهَا الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، فَيُدَاوِلُ اللهُ الْأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، يَوْمٌ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَيَوْمٌ لِلطَّائِفَةِ الْأُخْرَىٰ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ الدُّنْيَا مُنْقَضِيَةٌ فَانِيَةٌ، وَهَذَا بِخِلَافِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهَا خَالِصَةٌ لِلَّذِينِ آمَنُوا»(١).

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(٢) مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ».

فِي التَّارِيخِ عِبْرَةٌ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ..(*).

❀❀❀

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٥٨-١٥٩).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» فِي (الْقَدَرِ، ١: ٤، رَقْمُ ٢٦٤٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «وَا خَوْفَاهُ عَلَيْكِ يَا مِصْرُ!» - الْجُمُعَةُ ٢٠ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٧ هـ| ٢٧-٥-٢٠١٦م.

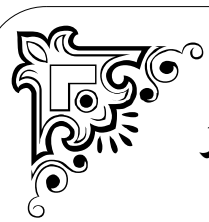

الِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِمَنِ اتَّقَى وَصَبَرَ

إِنَّ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **الَّتِي لَا تَتَخَلَّفُ وَلَا تَتَبَدَّلُ، الَّتِي تَدْعُو لِلِاعْتِبَارِ وَالتَّذَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ: أَنَّ الْخَاتِمَةَ الْحَسَنَةَ الْجَمِيلَةَ وَالنَّصْرَ وَالْعِزَّةَ دَوْمًا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَالصَّبْرِ، قَالَ** جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

«وَالْعَاقِبَةُ الصَّالِحَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَهْلِ التَّقْوَىٰ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

«﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أَيْ: يَتَّقِ فِعْلَ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَيَصْبِرْ عَلَىٰ الْآلَامِ وَالْمَصَائِبِ، وَعَلَىٰ الْأَوَامِرِ بِامْتِثَالِهَا؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ، وَاللهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا»(٢).

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٣٢١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٦٨).

«﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أَيْ: عُلَمَاءَ بِالشَّرْعِ وَطُرُقِ الْهِدَايَةِ، مُهْتَدِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، يَهْدُونَ غَيْرَهُمْ بِذَلِكَ الْهُدَىٰ؛ فَالْكِتَابُ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ هُدًى، وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْهُمْ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: أَئِمَّةٌ يَهْدُونَ بِأَمْرِ اللهِ، وَأَتْبَاعٌ مُهْتَدُونَ بِهِمْ، وَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ بَعْدَ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَهِيَ دَرَجَةُ الصِّدِّيقِينَ، وَإِنَّمَا نَالُوا هَذِهِ الدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ لَمَّا صَبَرُوا عَلَىٰ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَالْأَذَىٰ فِي سَبِيلِهِ، وَكَفُّوا نُفُوسَهُمْ عَنْ جِمَاحِهَا فِي الْمَعَاصِي، وَاسْتِرْسَالِهَا فِي الشَّهَوَاتِ.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أَيْ: وَصَلُوا فِي الْإِيمَانِ بِآيَاتِ اللهِ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ، وَهُوَ الْعِلْمُ التَّامُّ الْمُوجِبُ لِلْعَمَلِ، وَإِنَّمَا وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ لِأَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا تَعَلُّمًا صَحِيحًا، وَأَخَذُوا الْمَسَائِلَ عَنْ أَدِلَّتِهَا الْمُفِيدَةِ لِلْيَقِينِ، فَمَا زَالُوا يَتَعَلَّمُونَ الْمَسَائِلَ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا بِكَثْرَةِ الدَّلَائِلِ حَتَّىٰ وَصَلُوا لِذَاكَ؛ فَبِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ»[1].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنُؤَيِّدُهُمْ عَلَىٰ مَنْ آذَاهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ تَشْهَدُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَىٰ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٧٠-٧٧١).

الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا، فَتَشْهَدُ بِأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ الْأُمَمَ كَذَّبَتْهُمْ.

يَوْمَ الْحِسَابِ لَا يَنْتَفِعُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ تَعَدَّوْا حُدُودَ اللهِ بِمَا يُقَدِّمُونَهُ مِنْ عُذْرٍ لِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ اللهِ، وَلَهُمُ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَهُمُ الدَّارُ السَّيِّئَةُ فِي الْآخِرَةِ، وَهِيَ النَّارُ»(١).

مَتَىٰ مَا حَقَّقَتِ الْأُمَّةُ رُكْنَيِ الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ، وَأَتَتْ بِأَصْلَيْهِ -أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَىٰ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ-؛ مَكَّنَ اللهُ جَلَّوَعَلَا لَهَا، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: ٥٥].

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «هَذَا مِنْ وُعُودِهِ الصَّادِقَةِ الَّتِي شُوهِدَ تَأْوِيلُهَا، وَعُرِفَ مَخْبَرُهَا؛ فَإِنَّهُ وَعَدَ مَنْ قَامَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، يَكُونُونَ هُمُ الْخُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ، وَيَكُونُونَ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي تَدْبِيرِهَا، وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي فَاقَ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا، ارْتَضَاهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهَا؛ بِأَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِقَامَتِهِ، وَإِقَامَةِ شَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ؛ لِكَوْنِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ مَغْلُوبِينَ ذَلِيلِينَ،

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٤٧٣).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص ٥٧٣، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ).

وَأَنَّهُ يُبَدِّلُهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمُ الَّذِي كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَذًىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْكُفَّارِ، وَكَوْنِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلِينَ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ رَمَاهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَبَغَوْا لَهُمُ الْغَوَائِلَ، فَوَعَدَهُمُ اللهُ هَذِهِ الْأُمُورَ وَقْتَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَهِيَ لَمْ تُشَاهِدْ الِاسْتِخْلَافَ فِي الْأَرْضِ، وَالتَّمْكِينَ فِيهَا، وَالتَّمْكِينَ مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْأَمْنَ التَّامَّ؛ بِحَيْثُ يَعْبُدُونَ اللهَ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَخَافُونَ إِلَّا اللهَ.

فَقَامَ صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِمَا يَفُوقُونَ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، فَمَكَّنَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَفُتِحَتْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَحَصَلَ الْأَمْنُ التَّامُّ وَالتَّمْكِينُ التَّامُّ».

حَتَّىٰ وَقَفَ وَاقِفُهُمْ مِنْ مُجَاهِدِيهِمْ عَلَىٰ فَرَسِهِ عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ يُخَاطِبُ أَمْوَاجَهُ، وَيُنَاجِي مَا هُنَالِكَ مِنْ مِيَاهِهِ، وَيَقُولُ: أَمَا وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَكَ أَيُّهَا الْبَحْرُ قَوْمًا لَا يَعْبُدُونَ اللهَ لَخُضْتُكَ عَلَىٰ مَتْنِ فَرَسِي هَذَا، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحَتَّىٰ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

«هَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَجِيبَةِ الْبَاهِرَةِ، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ».

مَنِ الَّذِي يُنْصَرُ؟

صَاحِبُ الْإِيمَانِ، صَاحِبُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَصَاحِبُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَنْ أَقَامَ الشَّرْعَ عَلَىٰ نَفْسِهِ كَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، رُبُّوا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، احْتَرَقَتْ بِدَايَاتُهُمْ فَأَنَارَتْ نِهَايَاتُهُمْ، وَكَانُوا بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ مُسْتَقِيمِينَ مُوَحِّدِينَ

مُتَسَنِّنِينَ، وَكَذَا كَانَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْوَعْدُ قَائِمٌ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

«لَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ، وَإِنَّمَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ وَيُدَالُ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؛ بِسَبَبِ إِخْلَالِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ».

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ -التَّمْكِينِ وَالسَّلْطَنَةِ التَّامَّةِ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ- فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَفَسَقُوا، فَلَمْ يُصْلِحُوا الصَّالِحَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَهْلِيَّةٌ لِلْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتْرُكُ الْإِيمَانَ فِي حَالِ عِزِّهِ وَقَهْرِهِ وَعَدَمِ وُجُودِ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ نِيَّتِهِ وَخُبْثِ طَوِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا دَاعِيَ لَهُ لِتَرْكِ الدِّينِ إِلَّا ذَلِكَ.. إِلَّا خُبْثُ النِّيَّةِ وَسُوءُ الطَّوِيَّةِ!!

تَأَمَّلْ كَيْفَ مَكَّنَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلنَّبِيِّينَ مِمَّنْ أَعْلَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ شَأْنَهُمْ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧].

هَذَا التَّمْكِينُ الَّذِي مَكَّنَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِيُوسُفَ كَانَ لِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ؛ حَيْثُ قَالَ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- عَلَىٰ لِسَانِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ

ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٧-٤٠].

دَعْوَةٌ لِلتَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُمَكِّنُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٣هـ| ٢٢-٦-٢٠١٢م.

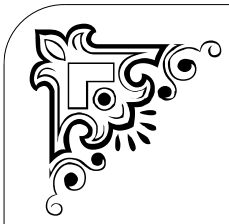

الِاعْتِبَارُ بِالْمَوْتِ وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا

عِبَادَ اللهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ دَائِبٌ فِي خَطْفِ الْأَحِبَّةِ؛ فِي أَخْذِ الْخُلَصَاءِ وَالْأَوِدَّةِ، وَقَدْ أَتَىٰ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه لِأَشْعَثَ يُعَزِّيهِ عَنِ ابْنِهِ فَقَالَ(١): «إِنْ تَحْزَنْ فَقَدِ اسْتَحْقَقْتَ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحِمُ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفًا مِنْ كُلِّ هَالِكٍ، مَعَ إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَىٰ عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ آثِمٌ مَأْزُورٌ».

وَعَزَّىٰ ابْنُ السَّمَّاكِ رَجُلًا فَقَالَ(٢): «عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ؛ فَبِهِ يَعْمَلُ مَنِ احْتَسَبَ، وَإِلَيْهِ يَصِيرُ مَنْ جَزِعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَتْ مُصِيبَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا أَعْظَمُ مِنْهَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيهَا، أَوْ مَعْصِيَتِهِ بِهَا».

وَعَزَّىٰ صَالِحٌ الْمُرِّيُّ رَجُلًا بِابْنِهِ فَقَالَ لَهُ(٣): «إِنْ كَانَتْ مُصِيبَتُكَ لَمْ تُحْدِثْ لَكَ مَوْعِظَةً؛ فَمُصِيبَتُكَ بِنَفْسِكَ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِابْنِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ التَّهْنِئَةَ عَلَىٰ آجِلِ الثَّوَابِ أَوْلَىٰ مِنَ التَّعْزِيَةِ عَلَىٰ عَاجِلِ الْمُصِيبَةِ».

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٩/ ١٣٩).

(٢) «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي (٣/ ٢٥٥).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٥٦).

وَقَالَ الْعُتْبِيُّ(١): «عَزَّىٰ أَبِي رَجُلًا فَقَالَ: إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُ عَلَىٰ اللهِ وَعْدَهُ مَنْ صَبَرَ لَحِقِّهِ، فَلَا تَجْمَعْ إِلَىٰ مَا فُجِعْتَ بِهِ الْفَجِيعَةَ بِالْأَجْرِ؛ فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمُصِيبَتَيْنِ عَلَيْكَ، وَلِكُلِّ اجْتِمَاعٍ فُرْقَةٌ إِلَىٰ دَارِ الْحُلُولِ».

وَعَزَّىٰ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه **فِي بُنَيٍّ لَهُ صَغِيرٍ، فَقَالَ**(٢): «عَوَّضَكَ اللهُ مِنْهُ مَا عَوَّضَهُ اللهُ مِنْكَ».

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه **إِذَا عَزَّىٰ قَوْمًا قَالَ**(٣): «عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ؛ فَإِنَّ بِهِ يَأْخُذُ الْحَازِمُ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْجَازِعُ».

وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ فِي الْمُصِيبَةِ(٤): «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي آجَرَنَا عَلَىٰ مَا لَوْ كَلَّفَنَا غَيْرُهُ لَعَجَزْنَا عَنْهُ».

إِنَّ أَحَقَّ مَنْ تَعَزَّىٰ، وَأَوْلَى مَنْ تَأَسَّىٰ وَسَلَّمَ لِأَمْرِ اللهِ، وَقَبِلَ تَأْدِيبَهُ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ نَكَبَاتِ الدُّنْيَا، وَتَجَرُّعِ غُصَصِ الْبَلْوَىٰ؛ مَنْ تَنَجَّزَ مِنَ اللهِ وَعْدَهُ، وَفَهِمَ عَنْ كِتَابِهِ أَمْرَهُ، وَأَخْلَصَ لَهُ نَفْسَهُ، وَاعْتَرَفَ لَهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَفِي كِتَابِ اللهِ سَلْوَةٌ مِنْ فَقْدِ كُلِّ حَبِيبٍ؛ وَإِنْ لَمْ تَطِبِ النَّفْسُ عَنْهُ، وَأُنْسٌ مِنْ كُلِّ فَقِيدٍ؛ وَإِنْ عَظُمَتِ اللَّوْعَةُ بِهِ؛ إِذْ يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٥٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٥٦).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٥٦).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٥٦).

وَحَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

وَالْمَوْتُ سَبِيلُ الْمَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ، وَمَوْرِدُ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، وَفِي أَنْبِيَاءِ اللهِ وَسَالِفِ أَوْلِيَائِهِ أَفْضَلُ الْعِبْرَةِ، وَأَحْسَنُ الْأُسْوَةِ؛ فَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْ فَجَائِعِ الدُّنْيَا بِأَجْزَلِ الْعَطَاءِ، وَمِنَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا بِاحْتِسَابِ الْأَجْرِ فِيهَا بِأَوْفَرِ الْأَنْصِبَاءِ؟!!

فُجِعَ نَبِيُّنَا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ ذُخْرَ الْإِيمَانِ، وَقُرَّةَ عَيْنِ الْإِسْلَامِ، وَعَقِبَ الطَّهَارَةِ، وَسَلِيلَ الْوَحْيِ، وَنَتِيجَ الرَّحْمَةِ، وَحَضِينَ الْمَلَائِكَةِ، وَبَقِيَّةَ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-، فَعَمَّتِ الثَّقَلَيْنِ مُصِيبَتُهُ، وَخَصَّتِ الْمَلَائِكَةَ رَزِيَّتُهُ، وَرَضِيَ ﷺ مِنْ فِرَاقِهِ بِثَوَابِ اللهِ بَدَلًا، وَمِنْ فِقْدَانِهِ عِوَضًا؛ فَشَكَرَ قَضَاهُ، وَاتَّبَعَ رِضَاهُ، فَقَالَ: «**يَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَتَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»(١).

وَإِذَا تَأَمَّلَ ذُو النَّظَرِ مَا هُوَ مُشْفٍ عَلَيْهِ مِنْ غِيَرِ الدُّنْيَا، وَانْتَصَحَ نَفْسَهُ وَفِكْرَهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ**»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَىٰ، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَىٰ رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**».

فِي غِيَرِهَا بِتَنَقُّلِ الْأَحْوَالِ، وَتَقَارُبِ الْآجَالِ، وَانْقِطَاعِ يَسِيرِ هَذِهِ الْمُدَّةِ؛ ذَلَّتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ، وَهَانَتِ الْمَصَائِبُ عَلَيْهِ، وَتَسَهَّلَتِ الْفَجَائِعُ لَدَيْهِ، فَأَخَذَ لِلْأَمْرِ أُهْبَتَهُ، وَأَعَدَّ لِلْمَوْتِ عُدَّتَهُ، وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا بِحُسْنِ رَوِيَّةٍ، وَلَاحَظَهَا بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ؛ كَانَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ وَشْكِ زَوَالِهَا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اذْكُرُوا الْمَوْتَ؛ فَإِنَّهُ هَادِمُ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصُ الشَّهَوَاتِ**»(١).

وَاعْلَمْ أَنَّ خَطَرَ الْمَوْتِ عَظِيمٌ، وَإِنَّمَا غَفَلَ النَّاسُ عَنْهُ لِقِلَّةِ فِكْرِهِمْ وَذِكْرِهِمْ لَهُ، وَمَنْ يَذْكُرُهُ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَذْكُرُهُ بِقَلْبٍ غَافِلٍ؛ فَلِهَذَا لَا يَنْجَعُ فِيهِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَالطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفْرِغَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ لِذِكْرِ الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُسَافِرَ إِلَىٰ مَفَازَةٍ مُخْطِرَةٍ، أَوْ يَرْكَبَ الْبَحْرَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَفَكَّرُ إِلَّا فِي ذَلِكَ.

وَأَنْفَعُ طَرِيقٍ فِي ذَلِكَ: ذِكْرُ أَشْكَالِهِ وَنُظَرَائِهِ وَأَقْرَانِهِ الَّذِينَ مَضَوْا قَبْلَهُ، فَيَذْكُرُ مَوْتَهُمْ وَمَصَارِعَهُمْ تَحْتَ الثَّرَىٰ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه(٢): «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ».

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه(٣): «إِذَا ذُكِرَ الْمَوْتَىٰ فَعُدَّ نَفْسَكَ كَأَحَدِهِمْ».

---

(١) أخرج أحمد (١٣/ ٣٠١، رقم: ٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧)، وابن ماجه (٤٢٥٨) وغيرهم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»، يَعْنِي الْمَوْتَ، وصححه الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٤٥، ح٦٨٢). «العقد الفريد» (٣/ ٢٥٥-٢٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٥) عن عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: «الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ».

(٣) أخرج أحمد في «الزهد» (١٣)، أبو داود في «الزهد» (٢٣١) وغيرهما، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ

وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْثِرَ دُخُولَ الْمَقَابِرِ، وَمَتَىٰ سَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا فَلْيَتَفَكَّرْ فِي الْحَالِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مُفَارَقَتِهِ، وَيُقْصِرُ أَمَلَهُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبَيَّ فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

كُنَّا عَلَىٰ ظَهْرِهَا وَالْعَيْشُ ذُو مَهَلٍ ... وَالدَّهْرُ يَجْمَعُنَا وَالدَّارُ وَالْوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ ذُو التَّصْرِيفِ أُلْفَتَنَا ... فَالْيَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ
كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَا يُبْقِي عَلَىٰ أَحَدٍ ... تَأْتِي بِأَقْدَارِهِ الْأَيَّامُ وَالزَّمَنُ

وَاللهُ الْمَوْعِدُ، وَفِيهِ الْعِوَضُ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ، وَفِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْعِوَضُ مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَىٰ الْخَلْقِ فَكَمْ ... قَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَىٰ مِنْ دُوَل
أَيْنَ نُمْرُودُ وَكَنْعَانُ وَمَنْ ... مَلَكَ الْأَمْرَ وَوَلَّىٰ وَعَزَل

=

مُرَّةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مَعَ الْمَوْتَىٰ، وَإِيَّاكَ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَاعْلَمْ أَنَّ قَلِيلًا يَكْفِيكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَىٰ، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَىٰ». وسنده صحيح موقوفا.

(١) أخرج البخاري (٦٤١٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

أَيْـنَ مَـنْ سَـادُوا وَشَـادُوا وَبَنَـوْا هَلَـكَ الْكُـلُّ وَلَـمْ تُغْـنِ الْقُلَـل
أَيْـنَ أَرْبَـابُ الْحِجَـىٰ أَهْـلُ النُّهَـىٰ أَيْـنَ أَهْـلُ الْعِلْـمِ وَالْقَـوْمُ الْأُوَل
سَـيُعِيدُ اللهُ كُـلًّا مِـنْهُمُ وَسَـيَجْزِي فَـاعِلًا مَـا قَـدْ فَعَـل

* * *

كُـلُّ ابْـنِ أُنْثَـىٰ وَإِنْ طَالَـتْ سَـلَامَتُهُ يَوْمًـا عَلَـىٰ آلَـةٍ حَـدْبَاءَ مَحْمُـولُ

* * *

إِنَّ الْمَسَـاءَةَ لِلْمَسَـرَّةِ مَوْعِـدٌ أُخْتَـانِ رَهْـنٌ لِلْعَشِـيَّةِ أَوْ غَـدِ
فَـإِذَا سَـمِعْتَ بِهَالِـكٍ فَتَيَقَّـنَنْ أَنَّ السَّـبِيلَ سَـبِيلُهُ وَتَـزَوَّدِ

* * *

أَقُـولُ لِنَفْسِـي فِـي الْخَـلَاءِ أَلُومُهَـا لَـكِ الْوَيْـلُ مَـا هَـذَا التَّجَلُّـدُ وَالصَّـبْرُ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنْ لَسْتُ مَا عِشْتُ لَاقِيًا أَخِي إِذْ أَتَـىٰ مِـنْ دُونِ أَوْصَـالِهِ الْقَبْـرُ
وَكُنْـتُ أَرَىٰ كَـالْمَوْتِ مِـنْ بَـيْنِ لَيْلَـةٍ فَكَيْـفَ بِبَـيْنٍ كَـانَ مِيعَـادُهُ الْحَشْـرُ
وَهَـوَّنَ وَجْـدِي أَنَّنِـي سَـوْفَ أَغْتَـدِي عَلَـىٰ إِثْـرِهِ يَوْمًـا وَإِنْ نَفَّـسَ الْعُمْـرُ

* * *

للهِ دَرُّ الـدَّافِنِيكَ عَشِـيَّةً أَمَـا رَاعَهُـمْ مَثْـوَاكَ فِي الْقَبْـرِ مُفْـرَدَا
مُجَـاوِرَ قَـوْمٍ لَا تَـزَاوُرَ بَيْـنَهُمْ وَمَـنْ زَارَهُـمْ فِـي دَارِهِـمْ زَارَ هُمَّـدَا

* * *

يَـا عَـيْنُ بَكِّـي عِنْـدَ كُـلِّ صَـبَاحٍ جُـودِي بِأَرْبَعَـةٍ عَلَـىٰ الْجَـرَّاحِ(*)

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَة: «ذِكْرُ الْمَوْتِ» - الْجُمُعَةُ ٢٥ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٩هـ| ١١-٥-٢٠١٨م.

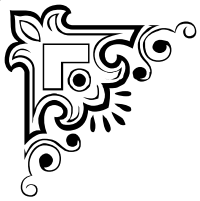

الِاعْتِبَارُ بَيْنَ أُولِي النُّهَى وَالْغَافِلِينَ

إِنَّ التَّفَكُّرَ وَالِاعْتِبَارَ مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ قَصَصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ قَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

«وَنَقُصُّ عَلَيْكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكَ كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِمَّا يُقَوِّي قَلْبَكَ لِلْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ، وَقَدْ جَاءَكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ -سُورَةِ هُودٍ- وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَخْبَارٍ بَيَانُ الْحَقِّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، وَجَاءَكَ فِيهَا مَوْعِظَةٌ يَرْتَدِعُ بِهَا الْكَافِرُونَ، وَذِكْرَىٰ يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ»(١).

وَقَدِ امْتَدَحَ اللهُ الْمُعْتَبِرِينَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ نِهَايَةَ قَوْمِ لُوطٍ:** ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٤-٧٥].

«﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أَيْ: قَلَبْنَا عَلَيْهِمْ مَدِينَتَهُمْ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ تَتْبَعُ فِيهَا مَنْ شَذَّ مِنَ الْبَلَدِ مِنْهُمْ.

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٢٣٥).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أَيِ: الْمُتَأَمِّلِينَ الْمُتَفَكِّرِينَ الَّذِينَ لَهُمْ فِكْرٌ وَرَوِيَّةٌ وَفِرَاسَةٌ يَفْهَمُونَ بِهَا مَا أُرِيدَ بِذَلِكَ؛ مِنْ أَنَّ مَنْ تَجَرَّأَ عَلَىٰ مَعَاصِي اللهِ؛ خُصُوصًا هَذِهِ الْفَاحِشَةَ الْعَظِيمَةَ، وَأَنَّ اللهَ سَيُعَاقِبُهُمْ بِأَشْنَعِ الْعُقُوبَاتِ كَمَا تَجَرَّؤُوا عَلَىٰ أَشْنَعِ السَّيِّئَاتِ»(١).

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْعِبْرَةِ إِلَّا الْعُقَلَاءُ أَصْحَابُ النَّظَرِ الصَّحِيحِ، وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ، وَالْعَقْلِ الرَّشِيدِ، مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

«فَاتَّعِظُوا يَا أَصْحَابَ الْبَصَائِرِ السَّلِيمَةِ وَالْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ»(٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

«إِنَّ فِي إِهْلَاكِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ لَعِبْرَةً لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ، أَوْ أَصْغَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ حَاضِرٌ بِقَلْبِهِ، غَيْرُ غَافِلٍ وَلَا سَاهٍ»(٣).

وَصِنْفَانِ مِنَ النَّاسِ لَا يَنْتَفِعُونَ بِالْعِبْرَةِ: الْمُتَكَبِّرُونَ وَالْغَافِلُونَ؛ فَأَمَّا الْمُتَكَبِّرُونَ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **فِيهِمْ:** ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٥٠٢).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٥٤٥).

(٣) «التفسير الميسر» (ص: ٥٢٠).

«سَأَصْرِفُ عَنْ فَهْمِ الْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي، وَالْمُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ النَّاسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَلَا يَتَّبِعُونَ نَبِيًّا، وَلَا يُصْغُونَ إِلَيْهِ لِتَكَبُّرِهِمْ، وَإِنْ يَرَ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ عَنِ الْإِيمَانِ كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا؛ لِإِعْرَاضِهِمْ وَمُحَادَّتِهِمْ للهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ يَرَوْا طَرِيقَ الصَّلَاحِ لَا يَتَّخِذُوهُ طَرِيقًا، وَإِنْ يَرَوْا طَرِيقَ الضَّلَالِ -أَيِ: الْكُفْرِ- يَتَّخِذُوهُ طَرِيقًا وَدِينًا؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ، وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا، وَالتَّفَكُّرِ فِي دَلَالَاتِهَا»(١).

وَقَالَ ﷻ عَنِ الْغَافِلِينَ اللَّاهِينَ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا لِلنَّارِ -الَّتِي يُعَذِّبُ اللهُ فِيهَا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ- كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؛ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا، فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا، وَلَا يَخَافُونَ عِقَابًا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يَنْظُرُونَ بِهَا إِلَىٰ آيَاتِ اللهِ وَأَدِلَّتِهِ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا آيَاتِ كِتَابِ اللهِ فَيَتَفَكَّرُوا فِيهَا، هَؤُلَاءِ كَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا، وَلَا تَفْهَمُ مَا تُبْصِرُهُ، وَلَا تَعْقِلُ بِقُلُوبِهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَتُمَيِّزُ بَيْنَهُمَا؛ بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنْهَا؛ لِأَنَّ الْبَهَائِمَ تُبْصِرُ مَنَافِعَهَا وَمَضَارَّهَا، وَتَتْبَعُ رَاعِيَهَا، وَهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَطَاعَتِهِ»(٢).

❀❀❀

(١) «التفسير الميسر» (ص: ١٦٨).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ١٧٤).

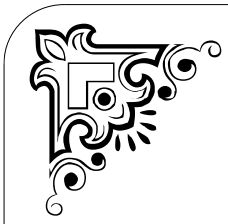

مِنْ ثَمَرَاتِ الِاعْتِبَارِ وَفَوَائِدِهِ

وَأَمَّا الظَّفَرُ بِثَمَرَةِ الْفِكْرَةِ فَهَذَا مَوْضِعٌ لَطِيفٌ.

وَلِلْفِكْرَةِ ثَمَرَتَانِ: حُصُولُ الْمَطْلُوبِ تَامًّا بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَالْعَمَلُ بِمُوجَبِهِ رِعَايَةً لِحَقِّهِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ حَالَ التَّفَكُّرِ كَانَ قَدْ كَلَّ بِأَعْمَالِهِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ، فَلَمَّا حَصَلَتْ لَهُ الْمَعَانِي، وَتَخَمَّرَتْ فِي الْقَلْبِ، وَاسْتَرَاحَ الْعَقْلُ؛ عَادَ فَتَذَكَّرَ مَا كَانَ حَصَّلَهُ وَطَالَعَهُ، فَابْتَهَجَ بِهِ وَفَرِحَ بِهِ، وَصَحَّحَ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ مَا كَانَ فَاتَهُ فِي مَنْزِلِ التَّفَكُّرِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنْ مَقَامِ التَّذَكُّرِ الَّذِي هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهُ، فَأَخَذَ -حِينَئِذٍ- فِي الثَّمَرَةِ الْمَقْصُودَةِ، وَهِيَ الْعَمَلُ بِمُوجَبِهِ مُرَاعَاةً لِحَقِّهِ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ التَّفَكُّرِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ فَهْمَ هَذَا بِمِثَالٍ حِسِّيٍّ؛ فَطَالِبُ الْمَالِ مَا دَامَ جَادًّا فِي طَلَبِهِ فَهُوَ فِي كَلَالٍ وَتَعَبٍ، حَتَّىٰ إِذَا ظَفِرَ بِالْمَالِ اسْتَرَاحَ مِنْ كَدِّ الطَّلَبِ، وَقَدِمَ مِنْ سَفَرِ التِّجَارَةِ، فَطَالَعَ مَا حَصَّلَهُ وَأَبْصَرَهُ، وَصَحَّحَ فِي هَذَا الْحَالِ مَا عَسَاهُ غَلِطَ فِيهِ فِي حَالِ اشْتِغَالِهِ بِالطَّلَبِ، فَإِذَا صَحَّ لَهُ وَبَرَدَتْ غَنِيمَتُهُ لَهُ؛ أَخَذَ فِي صَرْفِ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الِانْتِفَاعِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «خُلَاصَةُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْعَاشِرَةُ: مَنْزِلَةُ الْإِنَابَةِ - مَنْزِلَةُ =

مِنْ ثَمَرَاتِ الِاعْتِبَارِ وَفَوَائِدِهِ:

كَثْرَةُ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ تُقَوِّي الْإِيمَانَ بِاللهِ ﷻ.

وَتُوَسِّعُ مَدَارِكَ الْمُؤْمِنِ، وَتَدُلُّهُ عَلَىٰ آيَاتِ اللهِ -تَعَالَىٰ-.

وَتُكْسِبُ الْمُؤْمِنَ خَوْفًا مِنَ اللهِ ﷻ، وَمَهَابَةً مِنْ عِقَابِهِ.

وَتَجْعَلُهُ يَعْرِفُ الدُّنْيَا أَنَّهَا ظِلٌّ زَائِلٌ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ.

مِنْ ثَمَرَاتِ الِاعْتِبَارِ وَفَوَائِدِهِ: قَنَاعَةُ الْمُؤْمِنِ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

وَيَعِيشُ الْمُؤْمِنُ بِسَعَادَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ(١).

=

التَّذَكُّرِ)، الْأَرْبِعَاءُ ١٥ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٤١هـ| ٨-٤-٢٠٢٠م.

(١) باختصار من: «نضرة النعيم» (٢/ ٣٨٧).

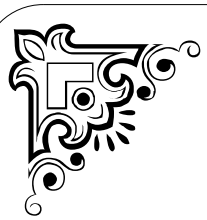

أَهَمِّيَّةُ الِاعْتِبَارِ وَالتَّدَبُّرُ سَبِيلُهُ الْأَعْظَمُ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ سَبِيلَ الِاعْتِبَارِ الْأَعْظَمَ هُوَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ؛ وَهَذَا الأَصْلُ الكَبِيرُ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ مُرَاعَاةً تَامَّةً، وَأَنْ يُتَأَمَّلَ فِي الطُّرُقِ التِي يُحَصَّلُ بِهَا -أَعْنِي بِهَذَا الأَصْلِ: تَدَبُّرَ القُرْآنِ العَظِيمِ-؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صَرَّحَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ القُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفَادَ مِنْهُ الفَائِدَةَ المَرْجُوَّةَ إِلَّا بِتَدَبُّرِهِ وَمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَّعَظَ بِهِ وَلَا أَنْ يُنْزَجَرَ بِهِ إِلَّا إِذَا عُلِمَتْ مَعَانِي آيَاتِهِ التِي فِيهَا المَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ، وَفِيهَا الزَّجْرُ عَنْ مُوَاقَعَةِ السَّيِّئَاتِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ضَمَّهُ القُرْآنُ العَظِيمُ مِنَ الكُنُوزِ وَالآيَاتِ البَيِّنَاتِ التِي يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا بِالنَّظَرِ المُتَدَبِّرِ المُتَأَمِّلِ المُتَأَنِّي؛ حَتَّىٰ يَسْتَطِيعَ المَرْءُ أَنْ يُفِيدَ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِ الفَائِدَةَ المَرْجُوَّةَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، الْأَرْبِعَاءُ ١٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ| ٧-٦-٢٠١٧م.

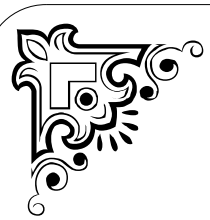

الْفِهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣

دَعْوَةُ الْقُرْآنِ إِلَىٰ التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ ٤

الِاعْتِبَارُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا ١٢

جُمْلَةٌ مِنْ آيَاتِ الِاعْتِبَارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ١٥

الِاعْتِبَارُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ١٩

مَنْزِلَةُ التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ ٢٢

أَقْسَامُ النَّاسِ فِي التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ ٢٤

مَعْنَىٰ الِانْتِفَاعِ بِالْعِظَةِ وَنَوْعَاهَا ٢٧

مَتَىٰ يُنْتَفَعُ بِالْعِظَةِ؟ ٢٩

مَجَالَاتُ الِاعْتِبَارِ وَأَنْوَاعُهُ ٣٥

مِنْ مَجَالَاتِ الِاعْتِبَارِ: الِاعْتِبَارُ بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ٣٧

مِنْ أَعْظَمِ مَجَالَاتِ الِاعْتِبَارِ: الِاعْتِبَارُ بِقَصَصِ الْقُرْآنِ ٤٣

الِاعْتِبَارُ بِمَصِيرِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ ٤٨

الِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ بِالتَّارِيخِ وَحَوَادِثِهِ..... ٦٩

الِاعْتِبَارُ وَالْعِبْرَةُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَصَبَرَ..... ٧١

الِاعْتِبَارُ بِالْمَوْتِ وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا ٧٧

الِاعْتِبَارُ بَيْنَ أُولِي النُّهَىٰ وَالْغَافِلِينَ..... ٨٤

مِنْ ثَمَرَاتِ الِاعْتِبَارِ وَفَوَائِدِهِ..... ٨٧

أَهَمِّيَّةُ الِاعْتِبَارِ وَالتَّدَبُّرُ سَبِيلُهُ الْأَعْظَمُ..... ٨٩

الْفِهْرِسُ ٩١